

الدكتور محمد الجوادي

الحكيم الجراح

سيرة حياة الدكتور محمد عبد اللطيف

الطبعة الثانية

الحكيم الجراح
الناشر: دار الخيال
الغلاف: محمد الصباغ



الحكيم الجراح

سيرة حياة الدكتور محمد عبد اللطيف

تأتلف فى هذا الكتاب رؤية حميمية لسيرة حياة أستاذى الدكتور محمد عبد اللطيف (1932 - 2000) وهو واحد من أنبغ أبناء مصر العصاميين الذين قدر لهم أن يشهدوا فى صباهم نهضة مصر فيما بين ثورتى 1919 و1952 ثم أن يكتووا بلظى 1967، وأن ينتشوا بانتصار 1973

وقد شاء له القدر أن يكون فى صدارة المجتمعات الجامعية والطبية طيلة الربع الأخير من القرن العشرين، معلماً وأستاذاً وعميداً ورئيساً للجامعة وفى الفصول التى يضمها الكتاب تجربة جديدة لتقديم السيرة من خلال ومضات الحوار المستطرد.

د. محمد الجوادي

دار الخيّال ـ القاهرة ـ لندن

الحكيم الجراح

الحكيم الجراح

سيرة حياة الدكتور محمد عبد اللطيف

د. محمد الجوادى

٢٠٠٩

مطبوعات دار الخيّال

الحكيم الجراح

الطبعة : الثانية

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/٩٠٩٤

الترقيم الدولى :٧-٤٤-٥٩٧٩-٩٧٧

دار الخيال : ٠١٢٢٢٩٠٦١٨

المحتويات

إهـداء

إلى الأخ الكريم

الأستاذ الدكتور عبد الفتاح فرير

تحية لذكريات نبيلة

د. محمد الجوادى

هذا الكتاب

تأتلف فى هذا الكتاب رؤية حميمية لسيرة حياة أستاذى الدكتور محمد عبد اللطيف (١٩٣٢-٢٠٠٠) وهو واحد من أنبغ ابناء مصر العصاميين الذين قدر لهم أن يشهدوا فى صباهم نهضة مصر فيما بين ثورتى ١٩١٩ و ١٩٥٢ ثم أن يعيشوا فترة الثورة بتصاعد مدها وقسوة انكسارها ، وأن يكتووا بلظى ١٩٦٧ ، وأن ينتشوا بانتصار ١٩٧٣.

وقد شاء له القدر أن يكون فى صدارة المجتمعات الجامعية والطبية طيلة الربع الأخير من القرن العشرين ، معلماً وأستاذاً وعميداً ومديراً .

وفى الفصول التى يضمها الكتاب تجربة جديدة لتقديم السيرة من خلال ومضات الحوار المستطرد الذى يحاول كاتبه أن يجلو بعض الحقائق التى يصعب على الاسترسال أن يبرز وضاءتها.

هذه إذاً فصول عن حياتى مع أستاذى الأعز الدكتور محمد عبد اللطيف، ولا أقول عن حياته كلها، وقد كتبت هذه الفصول على مدى ثمانى سنوات، بدأت كتابتها يوم رحيله عن هذه الحياة، وظللت أعود إليها، وألوذ بها من غيابه عن الحياة، وقد آثرت أن أكتبها على نحو ما سجلتها فى دفقات شعورية مؤجلا التعريف الكامل بالرجل إلى الباب الأخير على نحو ما أوردته فى مقال تأبينى له فى جريدة «الأهرام»، وهو المقال الذى نشر غداة رحيله.

وقد آثرت أن أحذف كثيراً مما كتبت، وأن أحور فى بعض ما رويت كيلا أجرح إنسانا، أو أحرج بشرا.

ولست أظهر نفسى بهذه الكلمات اليسيرة قادراً على الوفاء لأستاذى ببعض فضله، لكنى أرجو أن تحث هذه الكلمات على دعاء مقبول أن يتغمده الله بفضله، ورحمته، ومغفرته.

ومع أنى لم أكن أتصور أن أكتب مثل هذه المقدمة وأنا مريض ملازم للفراش، فقد قدر الله وما شاء فعل، وهاأنذا أكتبها بجسد عليل، وقلم عاجز، وعين دامعة، لكنى أرجو الله سبحانه وتعالى أن يهيئ لى من أمرى رشدا، وأن يرزقنى الشفاء، وأن يذهب عنى ما أعانى من شدة، وألا يحرمنى من ابتلاء أكون قادراً عليه.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يذهب عنى ما أشكو من ألم و وصب وقلق،وأن يحسن ختامى ، وأن يجعل خير عمرى آخره، وخير عملى خواتمه، وخير أيامى يوم ألقاه. والله سبحانه وتعالى أسأل أن يمتعنى بسمعى وبصرى وقوتى ما حييت، وأن يحفظ علىّ عقلى وذاكرتى، وأن يجعل كل ذلك الوارث منى.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يهدينى سواء السبيل، وأن يرزقنى العفاف والغنى، والبر والتقى، والفضل والهدى، والسعد والرضا، وأن ينعم علىّ بروح طالب العلم، وقلب الطفل الكبير، وإيمان العجائز، ويقين الموحدين، وشك الأطباء، وتساؤلات الباحثين.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يعيننى على نفسى وأن يكفينى شرها، وشر الناس، وأن يوفقنى لأن أتم ما بدأت،وأن ينفعنى بما علمنى، وأن يعلمنى ما ينفعنى ، وأن يمكننى من القيام بحق شكره وحمده وعبادته فهو وحده الذى منحنى العقل، والمعرفة، والمنطق، والفكر، والذاكرة، والصحة، والوقت، والقدرة، والجهد، والمال، والقبول. وهو جلّ جلاله الذى هدانى، ووفقنى، وأكرمنى، ونعّمنى، وحبب فىّ خلقَه، وهو وحده القادر على أن يتجاوز عن سيئاتى وهى ـ بالطبع وبالتأكيد ـ كثيرة ومتواترة ومتنامية. فله سبحانه وتعالى ـ وحده ـ الحمد، والشكر، والثناء الحسن الجميل .

د . محمد الجوادى

١

متعة الحوار

كان الحوار العقلى مع أستاذى نوعا من أنواع المتعة الصافية، تعرف بدايته ولاتعرف نهايته، فإذا أردت أن أصور أبرز ملامحه فإنى أقول إنها كانت انعدام العصبية، فكم كنا نبدأ الحوار من موقفين مختلفين تماما فإذا بنا نصل بعد الحوار إلى الاتفاق، وكان هذا الاتفاق يصل إلى حل من ثلاثة حلول، الحل الأول: أن يقتنع أحدنا برأى الآخر، وهذا هو أضعف الاحتمالات، الحل الثانى: أن نعرف أن كلا الموقفين صواب ولكن الذى يحدد الصواب هو الظرف نفسه على نحو ما توحى به الحقيقة القائلة بأن النفخ فى طبق الحساء الساخن يبرده، على حين أن النفخ فى الأيدى الباردة يدفئها، ولم تكن مثل هذه الحقيقة تأتى إلا بعد استغراق طويل فى الظروف المحددة لصلاحية كل قاعدة للتطبيق، الحل الثالث أن نصل إلى أن كلا الرأيين خاطئ، وأن هناك رأيا ثالثا هو الصواب على نحو ما تقول أى قصة بوليسية تعمد إلى البحث عن القاتل وتحصر الفكر والاحتمالات فى شخصين بينما القاتل شخص ثالث غيرهما.

و على مدى عقدين من الزمان دارت حواراتى مع أستاذى حيث أتيح لى أن أستزيد من علمه ومن حكمته، ولكنى أحب أن أعترف أنى استزدت من أخلاقه قدرا أكبر مما استفدته من علمه ومن حكمته،

وسأضرب بعض الأمثلة على هذه الاستفادات.

أبدأ بهذه القصة البسيطة: دار جدال عنيف على مستوى المجلس الأعلى للجامعات وعلى مستوى الرأى العام حول مبدأ قبول الجامعات المصرية لتحويل الطلاب الناجحين فى السنة الأولى فى جامعة بيروت العربية، ووصل المجلس الأعلى إلى قرار بأن يقبل تحويل هؤلاء فى مقابل تبرع كل منهم بمبلغ محدد من المال للكلية المحول إليها، كان المبلغ المحدد معقولا جدا مقارنة بالمصروفات والنفقات التى كان يتكبدها هؤلاء لو أنهم استمروا فى الدراسة فى جامعة بيروت العربية، وعلى الرغم من هذا فوجئت ذات يوم بكل موظفى الأمن فى الجامعة يشيرون إلى سيارتى عند دخولى إلى الجامعة، وإذا بمجموعة كبيرة من أولياء الأمور والطلاب يحملون فى أيديهم أوراقاً متشابهة كُتب بعضها على عجل وكُتب البعض الآخر بتأنٍ، وكانت كل الطلبات تدور حول أمر واحد، هو تخفيض المصروفات التى قررتها الجامعة، وقد توجهوا بهذا الطلب إلى أستاذى باعتباره المسئول الأول فى الجامعة وصاحب الحق فى مثل هذا القرار بالموافقة على مثل هذا الطلب الرامى إلى تخفيض هذا التبرع المحدد من قبل والذى سعدوا به جدا عندما نالوا موافقة الدولة على هذا التحويل وهذا المقابل.

أخذت الطلبات من هؤلاء وكلى أمل أن يوفقنى الله إلى خدمتهم، وألا يخذل ثقتهم فى قدراتى، وكان كل منهم يتوسل بأنه يعرف أخى أو أختى أو ابن عمى.. إلخ. رتبت الطلبات التى كانت تفوق العشرة، وعرضتها على أستاذى، فتكرم علىّ بالموافقة عليها.

بعد أن سلمتهم طلباتهم مجابة.. عجبت بالطبع لطمع النفس البشرية وقدرة البشر على أن يطلبوا طلبات متعاقبة على مراحل دون أن يصيبهم الخجل أو الملل أو الحياء، وبعد قليل أخذ التفكير يشغل بالى حول هذه النقطة، ولم أخف ضيقى وبرمى بالأمر على أستاذى، واندفعت إلى أن قلت: ألم يدفعوا أضعاف هذا المبلغ فى العام الماضى فى المصروفات والنفقات والسكن والسفر فما بالهم اليوم يريدوننا أن نكسر القواعد قاعدة وراء أخرى! ابتسم أستاذى فى حنو وعطف وقال: ياسيدى إذا كان

ولى الأمر من هؤلاء قد باع عفش البيت فى السنة الماضية وفاء لهذه المصروفات الكبيرة التى دفعها فمن يضمن لك أن يكون عنده عفش ثان يبيعه هذا العام؟

أفقت إلى نفسى، كأنما كنت فى غيبوبة وعاد إلىّ الوعى، أهكذا كنت سخيفا وظالما ومتغطرسا إلى هذا الحد الذى لم يمكننى من أن أدرك مثل هذه الحقيقة البسيطة، وما هى إلا بضع ثوان واغرورقت عيناى بالدموع حتى إن أستاذى قال: هون على نفسك فبعض هؤلاء بالقطع أفاقون يستسهلون الكذب وادعاء الحاجة ويستغلون العطف.. ولكنى كنت لا أزال أحس بالذنب، واستأذنت فى الخروج إلى السكرتارية لأسأل عن حجم الطلبات المقدمة من أجل هذا الاستثناء فإذا بى أفاجأ أن هؤلاء يمثلون نسبة بسيطة جدا، وأنهم فى السكرتارية قد رتبوا أمورهم على أن يعرضوا هذه الطلبات تباعا على أستاذى حتى لايرهقوه بها كلها مرة واحدة من ناحية، وهم لا يخشون أن يطول بهم الأمر لما عرفوه عن أستاذى من أنه مواظب وموجود بصفة مستمرة، وهكذا لم يكن هناك مبرر لتجميعها فى أثناء عرض واحد (للبوستة)، ولكننى طلبت منهم من تلقاء نفسى حصر هذه الطلبات الآن وإخبارى بعددها وإحضارها كلها معاً وعدت إلى أستاذى لأطلب منه أن يوافق عليها دفعة واحدة، وقد استجاب بسعادة ودون أن يعلق بكلمة واحدة.

على هذا النحو كان أستاذى يفعل مع مرضاه.. يأتى المريض فيصمم على أن يحجز جناحا فاخرا فى أكثر المستشفيات تكلفة وعلى أن يأخذ فرصته كاملة فى البقاء فى المستشفى مدة كافية بعد الجراحة، لكنه لا يظهر هذه الطلبات إلا بعد أن يكون قد حصل على أكبر تخفيض ممكن فى أجر الجراح ومساعديه مستغلا فى الحصول على هذا التخفيض والتنزيل كل الوسائل الممكنة من ادعاء العوز، ووساطات العمد ومشايخ البلد والنواب وكبار الموظفين، ومع هذا كان أستاذى وهو الذى لم يكن يعنى أبدا بالأجر يضحك فى أكمامه مما يقوله له هؤلاء أو يتظاهرون به من عوز، ولا يزعجه

من هذه التصرفات شيء، ويلتمس العذر لأخيه الإنسان.

■

كنت أنا وأستاذى نبدأ نقاشنا فى الجزئية الواحدة من نقطة واحدة.. كنا نبدأ النقاش ونحن نقصد به هدفا واحدا لكننا كنا على خلاف مستمر طيلة النقاش، فهو يرى اقتناع الناس ضروريا، وكان ينبهنى إلى أن الموظفين الصغار قادرون على إفساد أى شيء يبدو متناقضا لما تصوروه عن مصلحتهم، وكنت على العكس من هذا أؤمن بأن النظم لابد أن ترتقى بالناس، فكان يقول لى إن النظم لن تتمكن من الارتقاء بالجماهير إلا إذا أقنعتهم، وكنت أرى أن هذه مسئولية القائد أو المدير، وكان يرى أن فى مثل هذا التصرف تدميرا لثقة الناس بالقائد أو المدير مما يقلل من فرصة النجاح أمام أى إصلاح حقيقى فى المستقبل، وكنت أرد عليه بأن فى قبولنا للأمور الواقعة تكريسا للفساد، وكان يرد علىّ بأن الشروع فى العملية التى لا تضمن القضاء على الفساد يمثل فى حد ذاته تكريسا لما هو أسوأ من هذا الفساد.

وكنت أقول لأستاذى إنه يكفينا شرف المحاولة، وكان يقول إن مثل هذا السلوك لا يمكن فى نظره أن يرقى إلى أن يوصف بأنه محاولة، وأن المحاولة لابد أن تستوفى شروطا للجدية والكمال، وأن تكون مالكة لما ينبئ عن إمكان نجاحها، وكنت أقول له إن الوقوف عند حدود الواقع كفيل بالتدهور، لكنه كان يجيبنى بأن التدهور الحالى نفسه لم ينشأ إلا نتيجة محاولات غير موفقة، وكنت أسأل فى يأس عن البديل، فيجيبنى بأن الحل قد يكون فى تطبيق النظام المثالى بطريقة موازية فى وجودها لبقاء القديم والقضاء على القديم تدريجيا من خلال تدخلات غير قابلة للانتكاس، كتحويل الأكفأ من القديم إلى الحديث حتى يموت القديم تدريجيا، وكنت أعترض بأن هذا سيأخذ سنوات، وكان، ومعه الحق، يؤكد أن هذه السنوت ستمر رضينا أم أبينا دون أن يتحقق هذا أو ذاك.

وكنت فى بداية أمرى ومناقشاتى مع أستاذى أظن أنه يفتقد روح الإصلاح الحاسم، لكنى سرعان ما اكتشفت أنه حريص على الإصلاح بأكثر من حرصه على الصواب، وأنه حريص على الصواب بأكثر من حرصه على التصحيح، وأنه حريص على التصحيح بأكثر من حرصه على التقييم والتخطئة.

وهكذا تكوّنت عندى نواة حس نادر من القدرة على طرح بدائل الإصلاح الإدارى والاجتماعى ذات التكاليف الأقل، وذات البعد الإنسانى، وذات القبول الشعبى، وذات التسيير الذاتى.

ولو أن أحدا سألنى عن صاحب الفضل فى هذا التفوق لأجبته دون تردد بأنه أستاذ الجراحة محمد عبد اللطيف.

مع هذا فإن الذين يعرفوننى ويعرفون أستاذى لا يكادون يصدقون أن أستاذى كان مهتما بهذه القضايا، فضلا عن أن يهتم بأسلوبى فى علاجها، لكنى والله على ما أقول شهيد، أعترف أنه بذل جهدا كبيرا فى تهذيب آرائى وصقلها على نحو ما أصبحت عليه، ولولاه ما كان لهذه الآراء هذا البريق اللامع، ولا الملمس الناعم.



نضج الطفولة

كان لوالد أستاذى فضل كبير فى صياغة شخصيته الناضجة منذ مرحلة مبكرة، وإن كنا كعادتنا فى تقييد الأحكام بعد إطلاقها نتحفظ فنقول إن هذا الفضل تم بطريقة غير مباشرة، ولهذا قصة، فقد تخرج أستاذى فى كلية الطب فى السادسة والعشرين من عمره، وسألته بعد أن توثقت علاقتنا: لماذا تخرج كبيرا هكذا؟ إذ المعتاد أن يتخرج الطالب من الطب فى سن الرابعة والعشرين، أو أقل إذا ما كان قد دخل المدرسة الابتدائية فى سن دون السادسة.. ضحك أستاذى وروى لى أن والده حين ذهب به إلى المدرسة اختبره الناظر على حسب العادة المتبعة فى ذلك الوقت وذلك ليقرر أى الصفوف الدراسية يلتحق به هذا التلميذ الجديد، وقرر الناظر أن يلحق أستاذى بالصف الثالث لكن والده صمم على إلحاقه بالصف الأول، حاول الناظر إقناع الأب بأن ابنه ليس فى حاجة إلى تلقى العلم فى الصفين الأولين لأن مستوى ما تعلمه من تعليم أهلى يؤهله بالفعل لما لايقل عن السنة الثالثة الابتدائية، ولكن الأب صمم على أن يتيح لابنه الفرصة ليسير المشوار التعليمى من أوله، وهكذا ظل أستاذى فى جميع مراحل تعليمه متفوقا لأنه لم يكن يحصل العلم بقدر ما كان يجوده.

روى لى أستاذى هذه القصة إجابة على سؤالى، ثم أضاف أنه يشعر بالامتنان لهذا التصرف الذى اختاره له والده فى مطلع حياته.

قلت: وهل أحسست فى يوم من الأيام أن عامين قد ذهبا سدى من عمرك الوظيفى؟

أجاب أستاذى بابتسامة حقيقية وقال: لم أعرف هذه الحسابات إلا بعد أن أصبحت رئيسا للجامعة أو عميدا، ووجدت تكالب الناس على مثل هذه الأمور الصغيرة.

قلت: ولكن مثل هذا الفارق يمكن أن يؤسس اختلافا كبيرا فى المستقبل فى وظائف المستشارين ورجال القضاء، فسألنى أن أشرح له النظام القضائى فى الترقيات.

وبعد أن انتهيت عاد برأسه إلى الوراء وقال: ولكن رغم هذا كله فإن المستشار المتميز أو رجل القضاء المتميز لن يفقد مكانته ولا فرصته، وسيكون حتى وهو مرءوس مشارا إليه بالبنان أكثر من رئيسه.

قلت: إلى هذا الحد تحترم القدرة.

قال: ألست أنت المغرم بأن تردد قول العقاد فى وصف عزيز أباظة إنه عنى بالقدرة ولم يعن بالتقدير.

قلت: ولكن من حق المتطلعين أن يضمنوا مستقبلهم الوظيفى.

قال: ألم تقل إنه مستقبل؟

قلت: نعم.

قال: مادام مستقبلا فهو فى يد الله! هل أخبرك بما لا تتصوره؟

قلت: أحب أن أسمع.

قال: إنى طيلة شبابى لم أكن أتصور أنى سأصل إلى درجة أستاذ

وأقصى ما كنت أتوقع أن أصل إليه فى ظل النظام الجامعى القديم هو درجة أستاذ مساعد.

قلت: هل أخبرك بما لم تتصور أنى فكرت فيه.

قال: تفضل.

قلت: لقد راجعت فى لحظة صفاء أقدميات أساتذة الجراحة واكتشفت أن زميلك الذى كان يرأس القسم فى أسيوط (والذى كان فى وقت حوارنا رئيسا لجامعة أسيوط) لا يكبرك إلا بعامين، وهكذا تصورت ما ترويه لى الآن من أن فرصتك فى الوصول إلى أستاذية كرسى الجراحة لو ظل النظام القديم على حاله لم تكن لتتحقق إلا بعد سن الثامنة والخمسين حين يصل هو إلى سن التقاعد.

ضحك أستاذى وقال: ولكنى لم أحسبها هكذا مثلك بالورقة والقلم.

قلت: ولكن كيف حسبتها؟

قال: المسألة ببساطة كان هو قبلى كما تعرف وليس هناك أمل فى خلو مكانه بانتقاله من أسيوط لأنه استقر هو وأسرته... ولا غبار عليه.

بعد أكثر من خمسة أعوام من هذا الحديث أصبح أستاذى هو ثانى أقدم رؤساء الجامعات، أى العضو الثانى فى المجلس الأعلى للجامعات، ومن غرائب الأقدار أن أقدم الرؤساء أى العضو الأول كان هو نفسه زميله الجراح فى جامعة أسيوط الذى كان قد أصبح قبله رئيسا للجامعة بسنتين، وظل الوضع هكذا عدة سنوات، الرجلان الأولان بين رؤساء الجامعات هما أستاذان للجراحة بدءا حياتهما الجامعية معا فى القسم نفسه فى الكلية نفسها فى الجامعة نفسها.. ثم حدث ما هو أغرب من هذا وأطرف، إذ قضى رئيس جامعة أسيوط عشر سنوات فى منصبه حتى أحيل للتقاعد، وقضى أستاذى ثمانية أعوام فى منصبه وتركا رئاسة الجامعة فى الوقت نفسه، وإن كان أستاذى قد أصبح فى الشهر الأخير فقط من رئاسته

للجامعة بمثابة أقدم رؤساء الجامعات، وذلك لأن زميله رئيس جامعة أسيوط كان قد وصل إلى سن الستين فى أثناء العام الدراسى، وهكذا ترك منصبه فى نهاية يوليو على حين استمر أستاذى إلى نهاية أغسطس.

■

وبحكم هذا النضج المعرفى كان أستاذى يتمتع بقدرات يظنها البعض خارقة، لكنها كانت فى رأيى تعبيرا متأخرا وحتميا عن نضج الطفولة الذى حظى به، وكان هذا هو السر الحقيقى فى أن أستاذى كان يتدارك ما أخطأ فيه مَنْ سبقوه إلى صياغة القرارات، وكان يفعل هذا من دون أن يناديهم لإصلاح تأشيراتهم أو تعديل مذكراتهم، كان يعرف أنه رئيس الجامعة وأن فى وسعه أن يصحح أخطاء الآخرين، وكان ذكاؤه الحاد يساعده على أداء كثير من الوظائف فى سهولة ويسر وسرعة.

على سبيل المثال فإنه كان يعتمد آلاف الشهادات المؤقتة وغير المؤقتة، وكان يستطيع فى لمح البصر أن يكتشف حالات التزوير أو الخطأ الفادح، من ذلك على سبيل المثال أنه توقف عن اعتماد إحدى الشهادات الصادرة من كلية هندسة تتبع فرع الجامعة، ومع أن نائب رئيس الجامعة لشئون الفرع كان هو نفسه العميد السابق لهذه الكلية، فإنه لم يكتشف التزوير بينما اكتشفه أستاذى لأنه كان يحفظ فى ذاكرته البصرية طريقة العميد الحالى فى التوقيع، وقد أدرك أن التوقيع الذى على الشهادة لا يمت للعميد بصلة، وذلك على الرغم من استيفاء الشهادة لكل التوقيعات الأخرى وللأختام وللعينة ولنوع الورق... إلخ، لكن أستاذى فى لمح البصر جنب الشهادة المزورة ووضعها فى درج مكتبه، ومضى فى توقيع الشهادات الأخرى كلها وتركها للسكرتيرة ولطاقم مكتبه، وفى اليوم التالى جاء مَنْ يسأل عن شهادة كانت بين الشهادات ولم تعد موقعة مع الشهادات الأخرى، ولم يقم أستاذى الدنيا ولم يقعدها على حالة التزوير التى اكتشفها، ولا زعم أن أخلاق كل الموظفين وكل الشعب فاسدة لأن طابوراً من الموظفين والأساتذة وقعوا الشهادة قبل صعودها(!!) إليه، وإنما اكتفى أستاذى بأن أعلن للجميع

أنه صحح خطأ الجميع ولم يجر تحقيقاً ولا تأنيباً ولا توبيخاً، لأن تصرفه فى حد ذاته كان أقوى من هذا كله، ومنذ تلك اللحظة كان كل مَنْ يوقع قبله يعنى بتوقيعه وبالتأكد من صواب كل شىء، وقد حدث هذا كله دون ضجيج، وربما لايعرفه كثيرون ممن عاصروا هذه الفترة.

ومع أن هذا المثل الذى ذكرته لتوى يتعلق بأداء أستاذى المتميز فى رياسته الجامعية، ومدى ما كان هذا الاداء المتميز من علاقة بنضج الطفولة والقدرة على التجويد، فإنى كنت كثيراً ما أذكره أيضاً فى مقام الحديث عن احترام أساتذتى للشعب والجماهير، مع أن المثل الذى ذكرته يدل دلالات أخرى ربما كانت أدعى للذكر كذكاء الأستاذ أو دقته، وكعيوب النظم البيروقراطية التى تجعل توقيعات الاعتماد بمثابة طوابير متتالية.. وظنى أن علاقة هذا المثل بما أتحدث عنه من الإيمان بالشعب هى الأولى بالمناقشة، فقد علمتنى السنوات أن هذه التجربة العابرة لأستاذى جعلته بأقل قدر من الجهد يرتفع بمستوى الأداء البيروقراطى فى كل الأجهزة الإدارية فى الجامعة، وجعلته من ناحية أخرى يقطع خطوط العبث والتحايل والتلاعب التى لا نهاية لها.

■

وعلى سبيل المثال فإن اهتمام أستاذى المستمر بمتابعة اعتماده للشهادات الجامعية الأصلية التى نسميها «الكرتونة» جعلت هذه الشهادات متوفرة لمن يطلبها بعد فترة وجيزة من اعتماد النتائج الجامعية، وجعلت إدارة الخريجين تسارع بإنهاء هذه الشهادات بكل ما تتطلبه من تسجيل وترقيم، وبكل ما تتطلبه قبل هذا من كتابتها بيد خطاط محترف، وكانت الشهادة الجامعية الصادرة عام خمسة وثمانين تسلم فى جامعة الزقازيق فى العام نفسه، بينما كانت الصورة مختلفة تماما فى الجامعة الأم، حتى إن شهادة تخرج أستاذى فى أمراض القلب فى الدكتوراه (وقد حصل عليها عام ١٩٧٢) لم تكن قد أنجزت حتى عام تسعة وثمانين، وقد طلب منى بكل حب أن أتابع له الخطوات الكفيلة بحصوله عليها، وكانت هذه الخطوات تتطلب

اتصالا مباشرا بعميد كلية الطب الأم، وكان لحسن الحظ زميلا لأستاذى فى مرحلتى الثانوية والبكالوريوس بل من قريته نفسها، وبعد هذا الاتصال بدأت الإجراءات التقليدية: تُحرر بيانات للشهادة، وتُدفع رسوم، وتُرفق قسائم، وتُرسل البيانات إلى الجامعة حيث تحول إلى إدارة خاصة، ومن ثم لابد أن يذهب الخريج بنفسه للتأكد من بياناته الشخصية ثم يتولى الموظف إعداد الشهادة وبياناتها للخطاط. وفى هذه المرحلة جاء معى أستاذى وكان الخطاط جالسا بلا عمل، ولكنه لم يكلف نفسه الانتهاء من الشهادة، وإنما أعطانا موعداً بعد أسبوع، وأستاذى لا يتمالك نفسه من الضحك، وقد أعجزنا الضحك الداخلى والابتسام الذى أمسكنا به على شفاهنا عن أن نناقش الرجل فى جدوى تأخيرنا لمدة أسبوع بينما هو يتصفح بنظره المارين من تحت شباكه.. كنا بحكم معاشرتنا للبيروقراطية المتوحشة أعجز من أن نتصور أنفسنا قادرين على أن ندير حواراً معه حول قيمة الوقت، ذلك أن الشهادة التى نبحث عن أصلها فى ١٩٨٩ كانت تخص عام ١٩٧٢، وبوسع البيروقراطية أن تؤدبنا سبعة عشر عاما أخرى.

كان أستاذى فى أمراض القلب فى ذلك الوقت وكيلا لكلية الطب فى جامعتنا، فضلاً عن أن زميله المباشر كان، كما ذكرت، هو عميد كلية الطب فى الجامعة الأم، لكننا كنا ندرك تمام الإدراك أننا أمام وحش هائل من البيروقراطية المتوحشة المفترسة التى لايمكن لنا أن نقف أمامها، ولا أن نراجعها إلا مع قدر من الخسارة الانفعالية، وللأسف الشديد لم نكن مستعدين لهذه الخسارة!! وكنا قد أدركنا أن الله سبحانة وتعالى عوضنا عنها بما فى جامعتنا ورئيسها من سلاسة.

٣

الهيكلان العقلى و العظمى

فى كثير من الأحيان كان الحوار مع أستاذى يدور حول تقييمنا لبعض الشخصيات الجامعية أو العامة.

دار الحوار بينى وبين أستاذى ذات يوم حول الفارق بين شخصيتى اثنين متعاقبين من رؤساء البرلمان المصرى، وكان أستاذى يعتقد أن أولهما أقدر من خلفه، على حين كنت أعتقد أن الخلف أقدر وأفضل من سلفه بكثير.

قال أستاذى: إنك تحس من كلام الأول بهيكل عظمى لحديثه أو دفاعه.

قلت: ولكنك إذا تأملت كلام الثانى بعمق لوجدت له هيكلا عقليا واضحا، ولكنه بارع فى إخفائه.

قال: حتى هذه الخاصة لو وافقتك عليها فإنها تجعل كفة الأول أكثر رجحانا.

قلت: إن الأولى فى كلام السياسيين ألا يدرك مستمعوهم الهيكل من مجرد حديثهم.

قال: ولكن هذا ربما أضر بالتوجهات.

قلت: لايضر التوجهات إلا الخطوط العريضة.

قال: وكيف يسير الناس إذا لم يدركوا خطوطا عريضة يسيرون فيها؟

قلت: وهل فى المجال الجوى خطوط أم لا؟

قال: بل فيه بالطبع.

قلت: إنى أفضل أن تكون الخطوط العريضة فى حديث السياسة كتلك التى فى المجال الجوى مرسومة لكنها غير معلنة على نحو قاطع وصارم ومخيف يجعل الناس يخشون السير والمبادرة.

قال: ربما وافقتك فى هذه الجزئية... ولكن الأول يعطى لحديثه طابعا أقرب إلى أن يكون مهابة.

قلت: بل يعطيه نفورا.

قال: ولكنه يدفع الناس إلى التصفيق لكل جملة يقولها فى حماسة.

قلت: ويقف الأمر عند هذا الحد، فإذا جاء التصويت صوتوا فى الاتجاه الآخر.

قال: أو يدرك الثانى هذا المعنى؟

قلت: يدركه لكنه لايزال حريصا على أن يتظاهر بأنه لايدركه.

قال: ولماذا؟

قلت: هذا شأن السياسيين فى البلاد النامية لايعمرون إلا إذا تظاهروا بأنهم لا يفهمون فى السياسة.

قال: أهذا منطق نجاح؟

قلت: بل هو منطق استمرار.

قال: وما الفائدة؟

قلت: ألست أنت الذى علمتنى أنه لا ينجح إلا النجاح؟

قال: بلى، ولكن ما العلاقة ؟

قلت: غاية ما يقصد السياسى فى مثل هذا الموقع أن يستمر أكثر من غيره.

قال: ولكن هناك طريقا آخر للنجاح.

قلت: تقصد تحقيق الذات.

قال: بل أقصد إثبات البصمة وكفى.

قلت: وهم يعرفون هذا ولهذا فإنهم لا يطلبون الاستمرار إلا كى يطيلوا الفرصة التى يثبتون فيها بصمتهم.

قال: أفكان الأول واعيا لمثل هذا الذى تتحدث عنه؟

قلت: كان سيد الواعين ولكن تصلب أفكاره لم يمكنه مما تمكن منه الثانى بفضل مرونة أفكاره.

قال: أفتظن لتخصصهما العلمى شأن فى هذا؟

قلت: لو كان الأمر كذلك لكان العكس هو الصحيح فتخصص الأول فى الاقتصاد بما فيه من دينامية، وتخصص الثانى فى القانون الجنائى، وثوابته أكثر من متغيراته.

قال: فما تظن السبب فى هذا الفارق الواضح؟

قلت: فى الهواية.

قال: وكيف كان كذلك؟

قلت: كان الأول يهوى الخطابة، وكان الثانى، ولايزال، يهوى التمثيل.

قال: أفأدركت هذا من معرفة تاريخهما قبل أن تحكم على طبعهما أم

توقعته من دراستك لسلوكهما؟

وأردف أستاذى بحب شديد يقول: أم أنك وهذا هو الغالب حدسته من تصرفاتهما ثم تأكدت منه بدراسة حياتهما.

قلت: ربما لم أدرس هذا التاريخ بعد.

قال: وربما أنك لست بحاجة إلى دراسته.

قلت: لماذا؟

قال: لأن الهوايتين اللتين أشرت إليها ظاهرتان على الرجلين بدرجة واضحة لا تحتاج إلى تأكيد، ولكن قل لى هل وصلنا إلى عصر التمثيل؟

قلت: لا تنس أن الثانى يحب الخطابة هو الآخر حبا جما ولكنه إذا خطب تمثل شخصية سياسية مشهورة وأدى خطابه على نحو ما كان صاحبها يؤدى فكأنه يمثل.. بل كأنه يؤدى دوراً بطريقة كلاسيكية.

قال: أفمتأكد أنت من هذا؟

قلت: تأكدى من اسمى ونفسى.

قال: كنت أحس بشىء من هذا ولكنى لم أجزم به لأنى لم أكن أعرف ذلك الذى يقلده ولو عرفته لأدركت الحقيقة.

قلت: ولكنى عرفته.

قال: أحقا يظهر هذا القدر من التشابه فى طريقة التمثيل بين الرجلين؟

قلت: إن الثانى لايزال يقنعنا بأنه قادر على أداء ما كان سلفه القديم يؤديه.

قال: وما سعادته بهذا؟

قلت: إنما هو نموذج يؤديه ويوفر عليه رسم ملامح جديدة.

قال: ولكن رسم الملامح الجديدة يحسب له.

قلت: ويحسب عليه.

قال: كيف يحسب عليه؟

قلت: يطالبه بعض الناس بالتزام الملامح فيصبح أسيرا.

قال: وهل يكون الحل باللجوء إلى تقمص أداء شخصية قديمة؟

قلت: إن التقمص يعفينا من الالتزام، كما أن التمثيل يعفينا من الحقيقة.

قال: ولكننا نحتاج إلى كل من الالتزام والحقيقة أشد مايكون الاحتياج.

قلت: والسياسى الناجح يأخذ من الالتزام والحقيقة أضعاف مايعطى منها.

قال: تقصد أنه يوظفهما من أجل أهدافه ولا يوظف أداءه من أجلهما؟

قلت: هذا هو بعض مايفعل.

قال: أو بقى شىء؟

قلت: بقيت الحقيقة.

قال: فماذا يفعل فى بقية وقته؟

قلت: يتظاهر بالبحث عنها.

قال: أيجد من المبررات مايضيع به الوقت فى مثل هذا البحث المتواصل؟

قلت: إنه يخفيها ليظهرها، ثم يخفيها ليظهرها، ثم يظهرها ليخفيها وهكذا.

قال: وما جدوى هذا كله؟

قلت: تشتيت الانتباه.

قال: أو هذا هدف؟

قلت: هو أهم أهداف السياسيين.

قال: عن وعى؟

قلت: بل عن فطرة.

أطرق أستاذى برأسه وقال: فإذا كان الأمر كذلك وأظنه كما تصور فإن صاحبك هو أبرع سياسى أنجبته مصر.

قلت: بل هناك من هو أبرع وأكفأ منه بكثير وقد شهدت أنت له بهذا.

فتذكر أستاذى شهادته فى أحد الوزراء الذين عمل معهم مباشرة، وكان قد سبق السياسى الثانى إلى الوزارة ذاتها، وتنهد ثم قال: لا وجه للمقارنة على الإطلاق، فقد عملت مع الرجلين وتعاملت معهما بصورة مباشرة فكان القديم يحصل على القرارات التى يريدها بالإجماع من قبل أن نعقد المجلس، على حين كان الجديد يحصل عليها بعد مرافعات وجلسات ممتدة، وأخذنا نتذاكر مواقف الرجلين حين كانا وزيرين.

ثم قلت: ومع أيهما كنت أكثر راحة؟

قال: مع كليهما لم أشعر بأى حرج فى أى دقيقة من الدقائق طيلة السنوات التى عملنا فيها مع بعضنا، وإنما كنا نحس مع القديم بأننا مع والدنا، أما مع الجديد فهو أخونا على أكثر تقدير.

قلت: إن لى رأيا جسورا.

قال: ما هو؟

قلت: لو أن القديم درس الحقوق بدلا من العلوم لما كان لغيره من أساتذة القانون أى وجود طيلة عهد الثورة.

تأمل أستاذى فى رأيى طيلة دقيقتين كاملتين على الأقل وابتسم وقال:

فكأن الله لطف بهم جميعا حين وجهه لدراسة العلوم.

قلت: إنهم يعرفون هذا المعنى.

قال: أحقا؟

قلت: عليك بهم فاسألهم.

قال: إنه يكون سؤالا صعبا.

قلت: ولكنه يستحق المحاولة، قال: سأفعل.

الحكيم الجراح

٤

حوارات عن البشر

دار الخيال

لاتزال الذاكرة تدعونى لأن أذكر بعض حواراتى مع أستاذى حول بعض الشخصيات التى كان رأيه فيهم مختلفا تماما عن رأيى، وسرعان ما اتفق الرأيان بفعل الزمن.. والزمن وحده كفيل بمثل هذا.

الشخصية الأولى كنت أتحفظ على مجرد التفكير فى أن يكون صاحبها عميداً لإحدى الكليات، فهو فى رأيى لا يتمتع بخط فكرى واضح فى مناقشاته ولا فى قراراته، كما أنه كان أقرب إلى أن يكون مجيدا للتلفيق حتى من دون أن يستغل قدراته هذه فى بعض الأحيان من أجل التوفيق ذرا للرماد فى العيون، إنما هو حريص على توسيع شقة أى خلاف موجود وإطالة أمده، وكان بالإضافة إلى هذا يتمتع باللدد فى الخصومة إلى حدود يأنف منها العلماء وذوو الفضل.كان أستاذى على العكس منى يؤمن بصلاحية هذا الأستاذ للعمادة، ولم يكن يرى أن أسبابى الوجيهة (والصحيحة) تحول دون صلاحيته للعمادة، صحيح أنها قد تنخفض بمستواه كعميد ولكنها لا تحول بينه وبين تولى العمادة من ناحية، ولا تحول بينه وبين النجاح فى العمادة من ناحية أخرى، ولم أكن مقتنعا بهذا الذى يراه أستاذى، ولم يشأ هو أن يلح على إقناعى.

حتى كان يوم من الأيام دخلت عليه فوجدته يناقش أحد الطلاب من أعضاء تنظيم الجهاد خرج لتوه من السجن، وأخذ يطالب شخصيا وقضائيا وإداريا بما كان يعتقد أنه من حقه وأستاذى يلاينه حينا وينهره حينا آخر دون جدوى، وبعد أن دخلت بدورى مع الطالب فى نقاش طويل انتصرت فيه، وخرج الطالب إذا بأستاذى يسألنى عن شعورى تجاه الجهد الذى بذلته حتى انتصرت على الطالب وأقنعته، وكان يعرف بالطبع جوابى، وهو شعورى بالملل و«كرشة النفس» و«طلوع الروح» طيلة ساعتين، وإذا به يشير إلىّ أنه قضى هو الآخر ساعتين من قبلى مع الطالب حتى بلغت روحه الحلقوم.

وإذا بأستاذى بعد هذا يقول لى فى بساطة: إن العميد الذى لايحظى بإعجابك يستطيع أن «يكلفت» مثل هذا الطالب فى خمس دقائق على أكثر تقدير.. وأعجبنى استخدامه لهذا الفعل المشتق من «الكلفتة».. مع الاعتذار للدكتور كلوفيس مقصود وفلسفته الراقية التى توصف اختصاراً بالكلفسة.. وسلمت بصحة وصواب وجهة نظر أستاذى، فقد كانت هذه حقيقة مرة.. وهى أن بعض من نواجههم بالمنطق والاحترام لايصلح معهم المنطق والاحترام، ولكن تصلح معهم أساليب أخرى من قبيل «الكلفتة».

■

الشخصية الثانية كانت شخصية جامعية وصلت إلى مناصب سياسية رفيعة المستوى، وكان هذا الأستاذ حريصا بكل ما يستطيع على مجاملة أستاذى فى كل مناسبة وكل لقاء حتى ترك عنده الانطباع بأنه رجل مهذب وذو خلق، ولكنى على العكس من أستاذى كنت أعتقد فى أن هذا الأستاذ لا يمكن أن يكون على خلق سوى أبداً، وكان سبب حكمى عليه بهذه القسوة هو تصرفاته السياسية، ولست أجد داعيا لذكر ملامحها لأنها كفيلة بأن تكشف عن شخصه مما يعرضنى لطائلة القانون، لكنها فى نظرى كانت كافية لأن تحكم عليه بمجافاة الخلق الكريم، والطبع المستقيم، وكان أستاذى يناقشنى فى أن الآراء والتصرفات السياسية والاقتصادية تحتمل أكثر من وجهة نظر، ولكنى كنت أقول إن هذه التصرفات التى يسلكها هذا الأستاذ لا

تجد ما يبررها من وجهة نظرى، وإنما هى ممارسات انتهازية واضحة، وسوء سلوك مقنن لا تخطئه العين.

ومضت الأيام وإذا بأستاذى يستشار كطبيب فى علاج أحد الأقرباء المقربين لهذا الأستاذ، وإذا به يدخله المستشفى ويجرى له جراحة، وما هى إلا أيام ويستدعينى أستاذى لينهى إلىّ أنه اكتشف صواب رؤيتى.. وإذا به يستدعينى مرة أخرى لينهى إلىّ ما اكتشفه من أن الرجل لم يزر أقرب الأقربين إليه طيلة أسبوع من بقائه فى المستشفى!! وهو يعجب من أن يكون هناك بشر بهذه الدرجة من إهمال الأصول الخلقية.

■

الشخصية الثالثة كان أستاذا جامعيا أيضا ولكنه كان يتظاهر بتصرفات هستيرية خفيفة الوطأة يضحك لها زملاؤه دون أن يرثوا لصاحبها، ولكنى كنت أرثى له، وأخشى عليه وأستشعر أنه لن ينتهى به الحال على نحو طبيعى، وكنت أعتقد أن من واجبنا أن نوقف دائرة هذه التصرفات، وكان أستاذى يعتقد أن تفكيرى فيه نوع من الشطط وتحميل الأمور أكثر مما تحتمل، وفيه أيضا نوع من أنواع التبرع بتحمل تبعات لا قبل لنا بها، ولا مسئولية لنا عليها.. ومع هذا فقد كان الخلاف الخفيف بيننا حول هذه الشخصية يتجدد مرة بعد أخرى.

وزادت مسئوليات الحياة ومشاغلها علىّ إلى حد أنى أصبحت أميل إلى رأى أستاذى فى أنه لايجدر بنا أن نحمل نفسنا مسئوليته ولا حتى نصحه.

وبدأت أعترف لأستاذى بأنه كان على صواب وأنى كنت على خطأ، بل بدأت أندم على الوقت الذى ضيعته من قبل فى مناقشة حالة هذا الأستاذ، وكلما جاء ذكر نادرة من نوادر هذا الأستاذ أنظر إلى أستاذى فى تبجيل وأعترف له بأنى كنت مخطئا.

ومرت السنوات وإذا بنادرة من نوادر هذا الأستاذ تأتى إلى وسط حديثنا، وإذا بى كالعادة أتحسر على الأيام التى بذلتها فيما مضى فى

تشخيص ونقد حالته ومحاولة إصلاحها، ولكنى فوجئت بأستاذى يقول: ليتك أصررت على رأيك وليتنا أخذنا برأيك، عجبت بالطبع لمايقول أستاذى لكنه سرعان ما أزال عجبى، حين أدرك أنى لم أعلم بعد بحقيقة النهاية التى قاد إليها الأستاذ نفسه بتصرفاته الهستيرية، وقد وصل الأمر بعائلته إلى أن طلبوا قضائيا فرض الحجر عليه.

وسألنى أستاذى: هل كنت تتصور أن يصل الأمر إلى هذا الحد؟!

ولم أجب..

ولكنى سألت أستاذى: هل كان هو نفسه يتصور هذا؟

قال: لا.. وكنا نظنك فيما مضى من الزمان متجنيا عليه، ولو أنك كنت قد واصلت التعبير عن رأيك فيه لظنناك مجنونا.

قلت: وصلنى هذا الشعور.

ثم قال أستاذى فى أسى: يبدو لى أن تشخيص الجنون يحتاج إلى نوع من الجنون، وأن علاج الجنون يبدو هو الآخر نوعا من الجنون.

قلت: وما العمل؟

قال: يبدو أنه لا حل إلا بالابتعاد تماما عن الدائرة.

سألت أستاذى: وهل يمكن أن يأخذ هو نفسه بهذه السياسة؟

قال فى بساطة: ولكن لا تنس حقيقة أننا فى مجموعنا أصبحنا أقرب ما نكون إلى مجتمع مريض.

■

الشخصية الرابعة كانت شخصية إنسانة عظيمة حبيبة إلى نفسى، وقد كنت فيما عرفته بعد ذلك مخدوعا فى قدرتها على الوصول إلى الصواب، وكان أستاذى إذا وجدنى مندفعا إلى الثناء عليها لم يفعل أكثر من أن يتمتم

ببعض القول المأثور الذى يقول: «أبغض حبيبك هونا ما عسى أن يكون عدوك يوما ما.. وأحبب عدوك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما».

وجدتنى ذات مرة أسأل أستاذى: لماذا يتمتم هكذا؟

فقال: لأن هذه هى حكمة الحياة.

قلت: ولكنك تعرفنى صاحب آراء واضحة وتثنى على هذا الخلق فىّ.

قال: نعم، ولكن هذا لايمنع من أن هناك ما هو أوضح من الواضح.

قلت: فما هو السبب الذى يجعلك تتحفظ على هذه الشخصية؟

قال فى بساطة ومن دون مقدمات: ضعف شخصيتها.

صعقت لهذا الذى يقوله أستاذى إذ كيف له أن يدرك مثل هذا المعنى، وأن يعبر عنه بهذا التأكيد الشديد، وهو الذى لم يلتق هذه «الشخصية» إلا لدقيقة واحدة.

سألته: وكيف وصلت إلى هذا القرار؟

قال: مما ترويه أنت.

قلت: لعلى أخطأت التصوير أو التعبير.

قال: هذا لا يستقيم مع قدر الحب والثناء الذى تبديه.

قلت: ولكن هذا الضعف قد يكون محببا.

فأجابنى من فوره: الضعف هو الضعف محببا أم غير محبب.

قلت: أفأنت تنظر إلى الأمور مجردة ولا تنظر إليها فى إطارها.

قال: إن ضعف الشخصية جدير بأن يفقدها كل إطار .

قلت: إلى هذا الحد.

قال: وأكثر.

قلت: وما هو الأكثر؟

قال: إن ضعف الشخصية يضيع الذات ويحل الإرادة (أى يجعلها تتحلل).

قلت: وماذا بعد؟

قال: أو بقى شىء؟

لم أستوعب ما قاله أستاذى تماما.. ومضت عشر سنوات أو تزيد، وإذا أنا فى مواجهة الحقيقة المرة التى لم أكن قادرا على الوصول إليها بمفردى قبل عشر سنوات، وربما أنى لم أكن قادرا على الوصول إليها حتى ذلك اليوم الذى جاء بعد أكثر من عشر سنوات لولا هذا الضوء العابر الذى كان أستاذى قد ألقاه فى طريقى فى ذلك المساء.

الحكيم الجراح

٥

مؤامرات الأساتذة

دار الخيال

كان أستاذى فى رئاسته للجامعة يعانى من آثار بعض الألعاب الصغيرة التى يظن أصحابها أنهم متمكنون منها، بينما نصف الحقائق غائبة عنهم، وكان هو يبتسم فى هدوء وهو يراهم ينالون الإحباط عند ظهور نتيجة ألعابهم، وفى إحدى المرات كان صاحب اللعبة قد أجاد صياغتها على نحو مذهل، بينما كان أستاذى (وكنت أنا بالتبعية) نعلم أنه هو الخاسر على المدى القريب وليس على المدى البعيد، وفى ظل تأهلنا لتأمل اللعبة قلت: إن هذا الأستاذ ذكى.

قال: لا إنه ليس ذكيا، إنه يتظاهر بالذكاء.

وحقا قال أستاذى فلو أن هذا الأستاذ الآخر كان ذكيا ما كان لعب اللعبة من الأساس.. ولكن ماذا نفعل؟ والغرض مرض كما يقولون!!

■

كان أستاذى لا يحسن الظن بأحد الصحفيين اللامعين، وكنت على النقيض أحسن الظن به، وأحسست أن أستاذى لا يود التصريح لى بالسبب الذى يجعله يتجافى عن هذا الصحفى البارز على هذا النحو الذى كنت

أحسه بكل وضوح، ولأنى كنت أعرف متانة خلق هذا الرجل فقد كنت حريصا على أن أزيل هذه الجفوة وقد ظللت أوالى محاولاتى حتى كان يوم فاجأنى فيه أستاذى بما نشره هذا الصحفى مما قد يمكن إدخاله تحت بند السب والقذف.

قلت لأستاذى: إن هذا الذى يفعله الرجل ليس إلا كفتحك البطن لإجراء الجراحة.

قال: أويجوز لى أن أفتحها بدون داع!

قلت: ولكنه حسب ظنه قد وجد الداعى وإلا ما فعل.

قال: ولماذا لم يسأل؟

قلت: وكيف يسأل وأنت تتجافى عنه!

قال: كأنك تظن أنى لابد أن أتودد إليه حتى يسألنى.

قلت: على الأقل يشعر بالاطمئنان والراحة وهو يسأل.

قال: أليس صديقك وبوسعه أن يسألك؟

قلت: هذا لا يكفى ولابد أن يكون هذا الشعور شخصيا.

قال: لو أنى فعلت هذا لأعليت من سلطة الصحافة فوق السلطة التنفيذية.

قلت: إن الأمر كذلك بالفعل.

قال: ولكن الأمور لا تستقيم هكذا.

قلت: وهى أيضا لايمكن أن تستقيم بغير هذا.

قال: إنى أفهم حق النقد وحق المعرفة، ولكنى لا أرى سبيلا لأن اظهر مبرراتى فى كل قرار، قلت: ولكنك بالفعل تظهر مبرراتك.

قال: فماذا بقى إذاً مما هو مطلوب منى؟

قلت: أن تمنح الصحافة نفس البشاشة التى تمنحها لغيرها من الفئات.

قال: ولكنى لا أحب أسلوب التصريحات والتلميحات والتلميعات، فأنا أؤدى واجبى وحسبى ذلك.

قلت: وجزء من أداء الواجب الإعلان عما يهم الناس.

قال: ولكن هذا يوظف فى التلميع بمبرر وبدون مبرر.

قلت: الناس أذكى من أن يفرض عليهم شىء أو شخص.

قال: ولكنى أكون بهذا قد أسهمت فى ترسيخ خلق سيىء يصور الحديث عن أدائى لواجبى على أنه إنجاز.

قلت: هذا أخف الضررين.

لم أزل بأستاذى حتى اقتنع أن نلتقى على أرض محايدة بالصحفى صاحب الهجوم الذى بادر أستاذى بأنه لا يعرف حقيقة بعض الأمور، تمالك أستاذى نفسه وسأله عن هذه الحقيقة، ولم يجد الصحفى بدا من أن يفتح خزانة أسراره وأن يدلى ببعض ما فيها وأستاذى يتعجب من أن يصل تصوير الأمور على نحو كاذب حتى هذا الحد، وهو فى الوقت ذاته يعرف أن الصحفى لايُسأل عن مصادره، ولكنى كنت واعيا لوجودى، وأن فى وسعى أن أصرح بما استنتجه من سياق الحديث، فتجريح شخص ما على هذا النحو لا يصدر فى المقام الأول إلا عن منافسه إذا كان ممن يلجأون إلى مثل هذا الأسلوب السهل.

قلت لأستاذى: لقد علمتنا أن الشائع (فى أسباب المرض) هو الشائع.

قال: نعم.

قلت: فاسمح لى أن أستنتج كذا وكذا.

قال: وقد حزرت ما فكرت فيه.. ولكنى أستبعد على ضيفنا وهو صحفى قديم أن يقتنع بكلام منافس عن منافسه.

قال الصحفى وهو مندهش: لا أعرف أن هذا منافس لذلك.

قلت: أإذا عرفت هل يحل هذا المشكل كله؟

قال: نعم ولكن لابد من ردكم لأنى لست مكلفا بالتفسير.

قال أستاذى: ولكننى لا أحب لنفسى أن أدخل فى مثل هذه المعمعات.

قلت: هذا هو أخف الضررين، نظر أستاذى إلى الصحفى فوجده يؤمن على كلامى، كلفنى بكتابة الرد ووقعه، وبعد يومين نشر الصحفى مضمون الرد بأمانة شديدة.

قال أستاذى: لم أكن أتصور أن يكون أمينا إلى هذا الحد.

قلت: ألم أقل لك.

قال: لابد من شكره.

قلت: كيف؟

قال: سأذهب إليه بنفسى لأشكره وأعتذر عن الجفاء الذى مضى.

قلت: إنك تدهشنى بروحك المنصفة.

قال: سأدهشك بما هو أكثر.

قلت: وما هو؟

قال: ألم تحزر؟

قلت بعد هنيهة: هل تريد أن تقول إن الأستاذ الذى أوعز للصحفى بالمعلومات الكاذبة هو الذى كون فكرتك السيئة عن الصحفى؟

قال: نعم، ثم أردف: أو عرف الصحفى ذلك؟

قلت: لا، ولكنى توقعت هذا كله.

قال: نعم.. نعيب غيرنا والعيب فينا.

ومنذ ذلك اليوم لم يعد أستاذى يبخل على أى صحفى بأن يفتح له كل الملفات، وهذا أمر طبيعى لمن كان فى مثل عدالته ونزاهته وحبه للحقيقة، لكنه أصبح فى الوقت ذاته يفاجئ كل صحفى يتصدى لحملة من مثل هذه الحملات باسم من يعتقد أنه وراء أى حملة من هذا الطراز، وبالطبع فلم يكن هذا بالأمر الصعب عليه.

٦

فهم مختلف لمعانى شائعة

أذكر بكل فخر أنى تعلمت من حياتى مع أستاذى كثيراً من المعانى الدقيقة جداً للوطنية الحقيقية وعلى سبيل المثال فقد كان أستاذى واعيا أشد الوعى للخطايا التى نمارسها على مستوى جمعى دون أدنى حاجة إليها.

كنت فى أحد المرات أتحدث عن تدهور مستوى مدارس اللغات (والمشكلات التى بدأت تعانى منها)، فإذا به ينبهنى بكل بساطة إلى أن وجود هذه المدارس فى حد ذاته نوع من أنواع الخطأ الكبير الذى لا يجدى معه أن يكون أداؤها متميزا أو غير متميز.

وحين بدأت الدولة كالعادة تتدخل بإنشاء مدارس تجريبية كان يسخر من هذا العبث الذى يعالج عبثا بعبث أسوأ منه، وعندما قلت لأستاذى إن مثل هذا العبث يرضى الطموحات الاجتماعية ويدغدغها قال: ياسيدى بوسعنا أن نبحث عن سبل أخرى لإرضاء هذه الطموحات الاجتماعية.

كان أستاذى يعجب من محاولة بعض الناس إعادة الزمن القديم بتقاليده أو بظروفه، وفى إحدى الندوات الاجتماعية توجه أحد الحاضرين بالسؤال

إلى الضيف القادم من القاهرة وكان شخصية طبية مرموقة عن حقيقة مايقال من أن الطبيب المقيم لابد أن يحمل حقيبة الأستاذ، وأن يمشى من خلفه، وأنه لابد أن يحضر الخضار لبيت الأستاذ.. وهكذا، وفى بساطة شديدة أجاب الضيف الكبير: إن هذا على كل حال من مصلحة النائب قبل أن يكون من مصلحة الأستاذ.

عقب انتهاء الحفل وجدت أستاذى ينظر إلىّ، بل يتوجه إلىّ حيث وقفت ليسألنى أن يوصلنى بسيارته، ذبت حياء وخجلا كما يقولون وقلت له بعدما أصر على ركوبى السيارة: إننا لتونا قد سمعنا ما هو عكس هذا على طول الخط، تظاهر بأنه لم يسمعنى، وانصرف بلطفه إلى أحاديث أخرى، وفيما بعد لم يحدث أن توقع وجودى بلا سيارة إلا وأجبرنى على أن يكون هو القائم بتوصيلى أيا ما كان المكان الذى سأذهب إليه فى أى مدينة!!

وكان هذا فضلاً من أب حنون لا يمكن أن يكون أستاذاً عظيماً فحسب.

■

سألت أستاذى مرة عن أفضل شىء فى حياته.

قال: بل أجيبك بصفة عمومية عن أفضل ثلاثة أشياء فى حياة أى إنسان.

قلت: وما هى؟

قال: الأمل والألم والنسيان، وأخذ يحدثنى عن قيمة كل من هذه المعنويات الثلاث وأنا أحاوره.

ومما أذكره أنى قلت له: إن النسيان الانتقائى هو النعمة، أما النسيان العمومى فليس بنعمة.

فإذا به يقول: بل النسيان العمومى هو النعمة، ولو أننا تذكرنا كل ما مر بنا لأصابنا الجنون، ولولا تضاؤل حجم المصائب مع الزمن لذهبت بعقولنا.

قلت: لكننا نستطيع أن نتغلب على إحساسنا بالمصائب إذا نحن توقعناها.

قال: وهل كل المصائب قابلة للتوقع؟

قلت: أظن.

قال: كيف يمكن ذلك التوقع؟

قلت وكأننى أخطب: نقرأ فى كل نعمة جانبها السلبى، ونقرأ فى كل موجود جانبه العدمى، ونقرأ فى كل مكسب قابلية الخسارة، وفى كل صحة المرض الذى يقابلها.

قال: لن تستطيع أن تفعل هذا لأن نعم الله علينا أكثر بكثير من أن نتصورها.

قلت: ولكننا نستطيع أن ندرك أن لله ما أعطى ولله ما أخذ.

قال: ولكن النفس البشرية لا ترحب بما يؤخذ منها حتى لو تمنت التخلص منه.

قلت: هذا ما انتبه إليه الشاعر حين قال:

ولو سئل الناس التراب لأوشكوا

إذا قيل هاتوا أن يملوا فيمنعوا

قال: لم أسمع بهذا البيت من قبل ولكنه أحكم ما سمعت.

قلت: إنى أردده كثيرا، ولكن ما بالك توافق وتوافق وتوافق ولا تقول لا.

قال: إن الموافقة أسهل علىّ من قول لا، وأرحم، وإذا لم أوافق اليوم فسأوافق غدا.

قلت: ولكن هذا الأسلوب كفيل بأن يهدم بعض النظم.

قال: أصحاب الحاجة يريدون حاجتهم وحدها ولا يحتاجون إلى النظم معها.

قلت: فبوسعنا أن نربط هذا بذاك.

قال: لن تستطيع لأن المجتمع الذى يعيشونه لم يصل بعد إلى حد النضج.

قلت: ولكنه مجتمع جامعى.

قال: ولو، ليس له من الجامعة إلا الاسم ولكن أمامه وقت طويل حتى يحقق خصائصها.

قلت: لكن شيئا من النظم كفيل بأن يقلل ذلك الوقت اللازم من أجل تحقق التقدم.

قال: أوافقك ولكننى أعتقد فى تفسير آخر وهو أن جيلا نشأ على مخالفة النظام لا أمل فيه على الإطلاق.

قلت: أفيتأخر الإصلاح جيلا كاملا؟

قال: لو وصل الأمر إلى جيل واحد فقط لكان هذا مكسبا، إنما أخشى أن يصل إلى عدة أجيال.

قلت: ولكن جامعات أخرى فى وطننا نشأت على أفضل مايكون.

قال: ولكن انظر إلى الأجيال المناظرة للجيل الذى نتحدث عنه فى جامعتنا.

قلت: نعم أدرك ما تعنى.

قال: ألست أنت الذى تكرر أن الجامعات القديمة تسير بروح الرواد الأوائل؟

قلت: فما رأيك للمستقبل إذاً؟

قال: بدايات جديدة صحية، وصبر حقيقى على تكوين الأجيال العلمية.

قلت: إلى أى حد؟

قال: إلى حد أن يكون الشخص التالى للأستاذ هو المعيد الذى يشرب منه العلم كله.

قلت: ويظل الأستاذ أستاذا وحيدا عشرين عاما حتى يكبر المعيد.

قال: هو ذاك.

قلت: والبديل؟

قال: البديل هو ما نحن فيه.

قلت: ولا وسط.

قال: لا أظن الوسط يصلح لهذه الأمور.

ثم سكت هنيهة وقال: هل تذكر حديثك المتكرر لى عن أن التعليم الثانوى هو الأساس فى تكوين شخصيات أساتذتنا فى الجامعة؟

قلت: إنها عقيدة وليست حديثا فحسب.

قال: لم أدرك مدى صواب رأيك إلا أمس.

قلت: ولكنك وافقتنى قبل هذا.

قال: وافقتك على أنها نظرية صائبة لكنى لم أكن أعتقد أنها تمثل الصواب الوحيد.

قلت: لم أقل هذا.

قال: بل كان واضحا فى تعبيرك.

قلت: وماذا حدث بالأمس؟

قال: جاءنى أستاذان ظلا على خلاف طيلة ثلاث سنوات، فإذا بالخلاف يحل من تلقاء نفسه بعد قصة قصيرة قصصتها عليهما.

قلت: فزدنى معرفة بهذه القصة.

قال: من الطريف أنك أنت الذى رويتها لى.

قلت: لا أذكر.

ابتسم وقال: تريد أن تقول إنك لا تذكر أى قصة هى من كثرة ما قصصت؟

قلت: العفو ما أنا إلا جدول فى بحرك الزاخر، وكنت حقيقة لا أتعدى الجدول فى بحره الزاخر بالحكمة.

قال: لا عليك... إنها قصة ولدى الإمام علىّ كرم الله وجهه حين اختلفا فقال محمد بن الحنفية لابن بنت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إنما تركت لك فضل مصالحتى لأنك الأولى بالفضل.

قلت: أفقام الأستاذان وتعانقا؟

قال: بل أكثر من ذلك.

قلت: ماذا.

قال: أصر كلاهما على أن يتنازل عن حقه فيما كانا مختلفين عليه وأصبحت مشكلتى أن أصل إلى حل يرضيهما.

قلت: هذا ليس بالصعب عليك.

قال: نعم ولكنى واجهت مشكلة لم أكن قد حسبت حسابها وذلك على نحو ما يتم جزء من الجراحة بسرعة وأفاجأ بشىء بسيط لم يكن فى حسبانى.

قلت: ولكن ما علاقة هذا بالتعليم الثانوى؟

قال: ألست أنت الذى عمقت من هذه العلاقة بالتأكيد على أهمية فهم أدوار التربية الدينية والفنية والرياضية.

قلت: نعم ولكننى لم أكن أدرى أن بوسع أحد أن يفهم مما شرحت كل هذا الذى فهمت سيادتكم.

قال: أفبوسع أحد عاقل أن يفهم أدنى مما فهمت؟

قلت: ولكن الناس يفضلون الإطار النظرى ويتركون معناه.

قال: لقد أشرت أنت إلى هذا المعنى.

قلت: وهل يعنى هذا أن الحاضرين فهموا ما أعنيه ؟

قال: يكفينى أنى فهمت.

قلت: ولكنى لست صاحب الفضل فى هذا المعنى.

قال: بل أظن أن أحدا لم يسبقك إليه.

قلت: هذا يسعدنى ويغرنى أو يزيدنى غروراً ولكنه يغرينى بالمزيد.

قال: بالمناسبة تعرف أفضل عباراتك.

قلت: لا.

قال: أفضل ما قلت وما كتبت هو قولك: إن جامعة رفيعة المستوى لا تغنى عن محو الأمية.

قلت: بلغنى أنك أكرمتنى فاستشهدت بهذه العبارة أكثر من مرة أمام جموع من العمداء والأساتذة.

قال: وهل تعرف أن واحدا منهم جبل على الكبر ظن أن فى استشهادى بعبارة أحد تلاميذى ما قد ينقص من قدرى.

قلت: أوعبر عن هذا أمام الجمع أم عبر عن هذا فيما بينه وبينك؟

قال: من حسن الحظ أنه عبر عن هذا المعنى أمامهم.

قلت: وما حسن الحظ فى هذا؟

قال: حسن الحظ أنى صححت لهم المفهوم بدلا من أن أصححه لواحد فقط ويظل عالقا بأذهان الباقين.

قلت: أوتظنهم يوافقونه؟

قال وهو يضحك: لو فكرت بهذه الطريقة لتوقف نموك.

قلت: ولو أنى لم أفكر بها لتوقف نموى أيضا.

قال وهو يضحك نصف ضحكة.. أو وهو مبتئس فى الوقت ذاته: معك حق.



دوامة الحياة

دار الخيال

لم يكن أستاذى يشغل باله بالمادة إلا فى الحدود التى تمكنه من أن ينجز هدفا ما فى وقت ما، فإذا تصادف أنه كان غير مشغول بتوفير هذا التمويل فإنه كان لا يمانع فى أن يتخلى عما فى يده لأقرب غرض يطلبه منه الآخرون، ولهذا فإنه كان بمثابة المعين الذى لا ينضب لطلبات لا تنتهى من الأقربين والمقربين.

جاء إلى أستاذى ابن لصديق له كان يشغل منصبا رفيعا، وكان من أهم شخصياتنا القومية والجامعية، وادعى أن والده فى حاجة ماسة إلى مبلغ كبير من المال، وأنه لن يمضى أسبوعان حتى يرد هذا المبلغ، ولم يتأخر أستاذى فى تدبير المبلغ لابن صديقه، وفيما بعد شهور فوجئ أستاذى بصديقه يشكو له من المواقف التى وضعه ابنه فيها، فقد اقترض باسمه من أناس كثيرين وأضاع هذه المبالغ جميعاً على نزواته، ووجد الأب أن عليه التزاماً أدبياً تجاه الديون التى أخذت باسمه فأخذ يبيع أملاكه حتى لايموت وهو مدين، واستمر الأب يقص القصة على أستاذى دون أن يدرى أن أستاذى كان واحدا آخر من هؤلاء الدائنين، ولم يفتح أستاذى فمه بكلمة

عما حدث معه، فقد وجد نفسه خائفاً على صديقه من أن ينهى إليه خبراً جديداً فى سلسلة الأخبار الكفيلة بذهاب نفسه، وكان يعرف أن أملاك صديقه قد أوشكت جميعاً على النفاد، وأن طاقته الصحية والنفسية على الاحتمال لم تعد تحتمل، وما كان منه إلا أن أخذ يهدئ من روع صديقه، ويكرر على مسامعه النظرية التى اقتنع بها من أن المال ليس إلا وسيلة، وأنه إذا زاد عن حد الوسيلة أصبح بمثابة العبء على صاحبه.

■

كان أستاذى يؤمن بأنه لم يعد يصلح لشىء غير العمل، وكان آسفا أنه فقد المتعة بالحياة، حدث أنى ألححت عليه باقتراحى أن يقضى بضعة أيام فى الساحل الشمالى بعد أن أصبح آهلا بالسكان فى الصيف وعامرا بالقرى والفنادق، فإذا به يعتذر ببرنامجه المشحون بالاجتماعات واللقاءات والمشكلات، ولم يكن الوقت فى الحقيقة يتسع للغياب عن الجامعة أكثر من يومين، بينما اليومان لا يكادان يكفيان للسفر ذهابا وإيابا مع كل مشكلات السفر ومعاناته فى طرق حافلة بالحوادث والمصاعب.. مرت الأيام ووصل أستاذى إلى سن التقاعد وذهبت أكرر عليه الاقتراح برغبة (كما يقولون فى التعبير البرلمانى) وأخذت أصور له جمال البحر ومائه والجو والهدوء وما إلى ذلك، فإذا به بعد أن أنصت إلى النهاية يقول: يخيل لى أننى لم أعد أصلح لهذه الرفاهية.

قلت: إنى لا أتصور إنسانا يعجز عن المتعة، فما بالك بإنسان مثقف.

قال: نعم أنا أدرك ما تعنيه لكنى لا أتصور نفسى إلا واحدا من العبيد الذين قادهم سبارتكوس إلى الثورة من أجل الحرية، فلما ثاروا وتحرروا عجزوا عن الاستمتاع أو الإفادة من حريتهم فآثروا أن يعودوا عبيدا، وهأنذا أتحرر وأشعر بقيمة الحرية وبنعمة الحرية، ولكنى عاجز عن استغلالها لأن العبودية أصبحت فى دمى وجوارحى.

قلت: فكيف كان شعورك فى سنوات المسئولية التى انتهت لتوها؟

قال: كنت كالثور المعصوب العينين الذى يدير الساقية دون أن يعرف البداية من النهاية، ودون أن ينال بعض هذا الذى يدور من أجله.

قلت: يالفظاعة الصورة وقسوتها.

قال: هى الحقيقة أو أقل، ولهذا فلا تنتظر منى اليوم أن أتغير بسهولة، ولكنى أنصحك ألا يغريك طموحك بأن تقبل مايفقد إنسانيتك.

قلت: هذه أول مرة أسمعك أو أراك تنصح فيها أحدا فيما يتعلق بمستقبله بنصح هو أقرب إلى الفرملة.

قال: لأنى أدرك أنك لا تفكر بهذه الطريقة القاتلة، ولولا أنى أعرف ذلك ما نصحتك مثل هذه النصيحة لأنى أعلم أن الذين يدفعهم طموحهم إلى قتل أنفسهم أو استعبادها لا يمكن للدنيا كلها أن تقف أمام خطواتهم من أجل تحقيق الطموح، وقتل النفس.

بعد أقل من عام كان أستاذى قد أصيب بأزمة قلبية وعولج من أجلها بجراحة تبديل الشرايين التاجية، وعقب عودته من الولايات المتحدة الأمريكية ذكرته بما كنت قد اقترحته عليه فى العام الماضى من أنه حان الوقت لإجازة فى الساحل الشمالى فإذا به يعيد علىّ ما قاله منذ عام بنفس الكلمات وربما بنفس الحروف.

قلت: ولكن هذا أصبح جزءا مكملا للعلاج.

قال: نعم، ومع هذا فإنى أشك فى أنى سأمارسه.

بعد عام أو عامين اقتنع أستاذى باقتراحى ونفذه وعاد سعيدا فى الظاهر، وكنت حريصا على أن أسأله رأيه بعد عودته فإذا به يقول: ما أحمق الإنسان... تكون المتعة قريبة منه ويصر هو على الابتعاد عنها، حكيت

له ما أنا مغرم بحكايته من أن مَنْ هم أقل منه فى دول العالم الأخرى لا يقضون الفترة فيما بعد تقاعدهم إلا فى مثل هذه الظروف.

قال: لو أنى قضيت شهرا فى مصيف كهذا لقضيت بقية عمرى بلا مورد أنفق منه.

قلت: أكاد أعرف ولكنى أعجب منك، ألا تذكر حديثك عن الجراح الإنجليزى الكبير الذى كنت تلخص سيرته بكثرة عمله واستمرارها وكنت أقول لك إنك تفوقت عليه، فقد قضيت خمسة وثلاثين عاما تعمل بالليل والنهار سبعة أيام فى الأسبوع، اثنين وخمسين أسبوعا فى السنة.

قال: ما رأيك أنى تذكرت حديثك هذا منذ يومين فقط، وأنا أتأمل فيما أحرزت من ثروة ومن ديون.

قلت: لو أننا فكرنا بهذه الطريقة ما تقدمنا نحو السعادة شبرا واحدا.

قال: ولكن للأسف فليس هناك مناص من أن نفكر بغير هذه الطريقة. وأنت تعرف أنى لو توقفت عن العمل أسبوعاً واحداً فقط لأصبحت من ذوى الحاجة!!

قلت: ولكن بوسعنا أن نحاول.

قال: فات وقت المحاولة حتى أصبح التفكير فى المحاولة نوعا من أنواع الحمق.

ظللت أحاول أن أثنيه عن هذه النظرة السوداوية التى ليس لها دليل فى سلوكه وهو منتبه إلى محاولتى، لكنه لخص الموقف فى النهاية بقوله: إنما أنتظر أن تأتينى النهاية بينما أنا لا أزال أعمل وأعول نفسى وغيرى.

وقد رزقه الله هذه النهاية.

٨

رعاياك يا مولاى

كنا، أستاذى وأنا، فى طريق عودتنا من القاهرة إلى الزقازيق، وكان الطريق الزراعى الأشهر شبه متوقف فى مدخل القاهرة على غير عادته فى تلك الأيام، وهكذا أتيحت لنا الفرصة لنتأمل فى عشوائيات شبرا الخيمة ذات الكثافة السكانية العالية، ولم تكن مثل هذه الوقفة الإجبارية الطويلة قد أتيحت لأستاذى من قبل، وإذا بأستاذى يمتعض بل يقشعر لهذه الصورة الفظيعة من العشوائيات التى دمرت الأرض الزراعية، وأقامت تجمعات سكنية لاتتمتع بأى قدر من متطلبات الرعاية الصحية، ووجدتنى بوعى أو بدون وعى أنظر إلى هذه العشوائيات وأشير إلى بعض سكانها المتجمعين فى نقطة تجمع على شىء يسير لا يستحق التجمع.. وأقول لأستاذى: رعاياك يا مولاى.. فزع أستاذى أشد الفزع من التعبير الذى قلته.. وسألنى: ماذا تقصد؟ وكانت إجابتى مفزعة، بل أكثر إفزاعا، وكانت أبعد مما يتصور أستاذى على الإطلاق، فقد أوضحت له أنى أقصده هو شخصيا بالتعبير الشهير الذى كانت صحف المعارضة ترفعه فى وجه الملك فاروق قبيل الثورة مباشرة وتنشر تحته صور بعض البؤساء.. كان أستاذى بحكم سنه واعيا للمدلول التاريخى، لكنه لم يكن يتصور أن له هو شخصيا علاقة بالموضوع الماثل أمام أعيننا، وإذا به يسألنى

فى عطف عن علاقته بهؤلاء، وإذا أنا أفيض فى أن هذه المنطقة التى هى من القاهرة لا تتبع محافظة القاهرة لكنها تتبع ما يسمى «القاهرة الكبرى»، وأن هذه المنطقة تتبع محافظة القليوبية، وبالتالى فإنها تدخل فى نطاق عمل جامعتنا فى الزقازيق التى من المفترض أن يكون لها رأى فى قضايا هذه المنطقة وتنميتها ومشكلاتها وخدماتها.

■

كان أستاذى يدرك كل مغزى فى الجزء الثانى من هذا التعقيب، لكنه كان لا يزال مندهشا من مسألة تبعية شبرا الخيمة لمحافظة القليوبية، لكنى أوضحت له الصورة من خلال الحد الفاصل بين القاهرة والقليوبية، ولم يكن من الصعب على أستاذى أن يستوعب الجغرافيا كلها فى دقائق، كما كان من السهل عليه أيضا أن يدرك التطور التاريخى والحضارى لهذه المنطقة، وأن يدرك بكل وضوح الأسباب التى دفعت إلى نشأة عشوائياتها على هذا النحو، بل إن أستاذى فى خلال عشر دقائق كان يملك تصورا أكمل وأشمل من تصورى عن هذه المنطقة كلها، وإذا به يصور لى بحكم علاقته بالريف كيف يقسم الفدادين إلى قراريط، وأن هذه العمارة مبنية على قيراط كامل، والبيت الذى إلى جوارها على نصف قيراط، وهذه القطعة لم تبع بعد لكن قيمتها سترتفع، وأن هذه المبانى لا تتمتع بالمجارى وإنما هى تصرف عن طريق الترنشات.. وهكذا.. وهكذا.

وإذا بالمناقشات تدور بينى وبين أستاذى طيلة مسافة العودة من القاهرة إلى الزقازيق فى أكثر من مرة، وإذا بى أخرج من هذه المناقشات بالنواة الأولى للمجموعة الكبيرة من مقالاتى التنموية عن القاهرة والتخطيط العمرانى، والتقسيم الإدارى التى وفقنى الله إليها فيما بعد ذلك وعلى مدى عشرين عاما.

ومنذ ذلك اليوم وإلى يوم وفاة أستاذى لم ينقطع حوارى مع أستاذى حول ما هو ممكن لمنع تفاقم مشكلات الوطن، ومع أنى كنت أتفوق عليه فى معلوماتى عن حجم المشكلة، وعن جذورها التاريخية، ومع أنى كنت أتفوق

عليه كذلك فى الإلمام بالحلول الممكنة وغير الممكنة وتكلفة كل حل من الحلول، فإن أستاذى كان متفوقا علىّ بشدة فيما هو أهم من هذا كله، وهو اللمسة الإنسانية الكفيلة بأن تجعل حل كل مشكلة من هذه المشكلات بمثابة طب أو علاج أو جراحة، ولا تجعلها بمثابة نظم قراقوشية المظهر، أو عسكرية الطابع.

وإنى أعترف الآن أن هذا الجزء الذى يبدو فى أعين القراء أو فى أعين الناس ضئيلا كان أهم بكثير من كل إلمامى ومعرفتى ودرايتى، كما أنى أعترف بالفضل الضخم لهذا الفن الذى تعلمته من أستاذى فيما يتعلق بتنفيذ أفكارى الطوباوية فيما يتعلق بمشكلاتنا التنموية.

■

وأستطيع أن أقول دون مجاملة لذكرى أستاذى عليه رحمة الله إنه لولا هذه المسحة التطبيبية والطبية والجراحية التى أضفاها على أفكارى، ما كانت أفكارى التنموية قد وصلت إلى ما وصلت إليه من تميز يجعلها، بفضل الله سبحانه وتعالى، تصنف على أنها آراء مفكر وطنى واسع الأفق.. وليست آراء تكنوقراطى متخصص، ولا آراء حزبى أيديولوجى متمرس..

ومن الإنصاف أن أشير إلى أن هذه المسحة التى اكتسبتها من أستاذى لم تتحقق عبر موقف واحد، ولا عبر سنة واحدة، لكنها تحققت عبر مناقشات استمرت أكثر من خمسة عشر عاما، ولم تكن هذه المناقشات تدور مرة واحدة فى الشهر، ولا مرة واحدة فى الأسبوع، وإنما كانت تدور ثلاث أو أربع مرات على الأقل فى كل أسبوع، وكان بعضها يستمر لأكثر من ساعتين، وكان بعضها لا يتوقف بحكم ظروف العمل إلا على اتفاق بالعودة إلى نفس الموضوع مع تذكر النقطة التى وقفنا عندها.

وأذكر من هذه المناقشات مناقشة طويلة دارت بينى وبين أستاذى حول أحد النظم العلاجية التأمينية، وكان النظام حافلا بالثغرات والتجاوزات، ولم يكن إصلاح هذا النظام يحتاج إلى معجزة، لكنه كان بحاجة إلى قرار

واحد شجاع يملك أستاذى إصداره، لكن أستاذى نبهنى بعد طول جدال منى إلى أهم جزئية فى الموضوع وهى أن هذه الثغرات والتجاوزات هى المصدر الرئيسى للدخل لمجموعة كبيرة من العاملين فى طوائف كثيرة من عمال وإداريين وتمريض وطب، ولم أكن غافلا عن هذه الحقيقة المؤسفة، لكنى كنت مؤمنا بأن إعادة هذه الأمور إلى نصابها سيضمن لكل هؤلاء أرزاقهم، مع وضع هذه الأرزاق فى إطار الحلال بدلا من نطاق الحرام، وفى إطار المشروعية بدلا من التحايل، ولم يكن أستاذى يوافقنى على رأيى فى أن هؤلاء سيقتنعون بمثل ما أقول وهم الذين بنوا حياتهم على تفوقهم فى المهارات الشريرة التى تمكنهم من التحايل على النظام وتسخيره من أجل أنفسهم على نحو ما هو قائم.

■

وربما كان من حق أستاذى لطفى شهوان، أستاذى فى أمراض القلب، أن أقرنه بأستاذى محمد عبد اللطيف فيما يتعلق ببعض ما تعلمته منهما معاً فى هذا الميدان الشريف، وذلك على الرغم من اختلاف مشاربهما وتوجهاتهما ومواقفهما الفكرية، وفى هذا دليل من الأدلة على أن العلم الحقيقى والتعليم الحقيقى لايقف عند حدود توجه ما أو أيديولوجية.

وإنى أعتقد أن أبرز ما اشترك أستاذاى فى تعليمه لى هو الإيمان بالشعب، كان كل منهما يؤمن بالشعب وبحكمة الشعب وبذكاء الشعب على غير عادة كثيرين من الأساتذة وأصحاب النفوذ، وكان أستاذ الجراحة يقول لى: إن الشعب قادر على الاختيار مهما حاولت البيروقراطية أن تقف ضد رغبته، وكان يصل فى إيمانه بهذه الجزئية إلى حد أن يقول إن الشعب قادر على أن يفرض إرادته حتى من دون الانتخابات، وحتى لو كانت الانتخابات مزورة، فإن فرصة الشعب فى التعبير عن إرادته تظل قائمة، ولا يستطيع أحد مهما كان أن يزورها.

وكان أستاذ القلب يمضى أبعد من هذا خطوة، وهو الذى أرشدنى إلى صواب الفكرة القائلة باحتقار كل مسئول يلقى بعبء الخطأ على الشعب، أو

يقول إن الشعب لا يفهم الحقيقة. كان أستاذى يقول لى: إن الذى يقول مثل هذا الكلام ليس إنساناً أساساً ولا يستحق إلا الاحتقار، وكان يقول: إن الذى يصل إلى موقع المسئولية مسئول قبل كل شىء عن أن يفهم الناس الحقيقة ولا يدعهم يبحثون عنها ثم يتهمهم بأنهم لا يعرفون الحقيقة.

بل إن أستاذ القلب كان إذا رأى فوضى فى مكان ما قال لى: بوسعك يامحمد أن تبحث عن السبب الحقيقى لهذه الفوضى، وسترى أن المسئول عن هذا المكان فوضوى من الطراز الأول.

وكان أستاذى هذا إذا رأى ورقة على أرضية القسم بادر من فوره إلى التقاطها ووضعها فى سلة المهملات من دون أن يثير لغطاً، أو يصور الأمر على أنه جريمة، أو يطلب مَنْ يتولى هذا الفعل لأنه أكبر منه. كان يقول وهو يرفع الورقة أو شبهها من على الأرض: إن فى هذا ثواباً، ويذكرنا بحديث النبى صلى الله عليه وسلم القائل بأن إماطة الأذى عن الطريق صدقة.

٩

أيام ولت ولن تعود

كانت فكرة احترام الشعب واحترام حقوق الإنسان غالبة على فكر أستاذى، ويبدو لى أن هذه الفكرة قد أفادته فى عمله ، كما أفادت المتعاملين معه ، ويحضرنى فى هذا الصدد مثل بسيط عشت قسوته وربما لا أتجاوز إذا قلت إنى لا أزال أعيش لظاه.

كنا قد أسسنا فى جامعتنا جمعية للتأمين العلاجى، وكانت هذه الجمعية قادرة على أن تغطى نفقات علاج أعضاء هيئة التدريس والعاملين فى الجامعة، وأن تتعاون فى تغطية نفقات العلاج بالخارج مع ما توفره القرارات الوزارية من موازنة الدولة فى أبوابها المختلفة، فى البند المخصص لنفقات علاج العاملين فى موازنة الدولة، أو موازنة القومسيون الطبى، أو موازنة أنظمة التأمين الصحى المختلفة، وكنا ندير المسألة بحس تأمينى اقتصادى بحيث نفيد من كل إمكانية لتغطية العلاج من بند حكومى ونكمل من خلال هذا الصندوق الذى يصرف مثلا خمسة آلاف جنيه أو عشرة آلاف جنيه للمسافر للعلاج فى الخارج على نفقة الدولة بحيث تمكنه هذه الآلاف المعدودة من استكمال نفقات العلاج التى لايغطيها قرار القومسيون الطبى العام، أو قرار رئيس الوزراء، أو قرار وزير التعليم العالى.

وكنا ننفق من هذا الصندوق على علاج طائفة الأطباء المقيمين لأنهم لا يتمتعون بتغطية تمويلية لعلاجهم حيث إن وظائفهم بحكم القانون العقيم مؤقتة، كذلك كنا ندعم منه علاج المعيدين والمدرسين المساعدين الذين لا يعتبرون بحكم القانون من أعضاء هيئات التدريس بينما هم شباب أعضاء هيئة التدريس!!

وكذلك كنا ندعم منه عند الحاجة علاج أطباء الامتياز الذين يمثلون حلقة من حلقات الوظائف الراقصة على السلم من وجهة النظر البيروقراطية، فلا هم طلاب يتمتعون بالتأمين الصحى للطلاب، ولا هم موظفون يتمتعون بالتأمين الصحى للموظفين، فهم فى نظر إدارات شئون الطلاب خريجون حصلوا على البكالوريوس وانتهوا من دراستهم، وهم فى نظر إدارة شئون العاملين: «طلاب امتياز التدريب» هكذا بالنص.. وقل مثل هذا فى حالات كثيرة، صحيح أن الإصابة فى هذه الفئات تكاد تكون أقرب إلى النادر، لكنها كانت تقع ونصبح أمام واقع لابد أن نتعامل معه، حتى من أى صندوق من قبيل صندوق التكافل الاجتماعى لطلاب الجامعات، وهو صندوق قديم وجد منذ منتصف السبعينيات ويتمتع بموازنات جيدة.

نأتى إلى بيت القصيد، أو إلى باب بيت القصيد، كان المؤسسون لجمعية التأمين العلاجى قد انتبهوا فى ذكاء إلى أن يجعلوا أكبر مسئولين فى مجلس إدارة هذه الجمعية هما أكبر طبيبين فى الجامعة، وكانا هما أستاذ الجراحة (وكان عميد الكلية فى ذلك الوقت) وأستاذ المسالك البولية (وكان وكيل الكلية ورئيس مجلس إدارة المستشفيات بالجامعة فى ذلك الوقت)، وبعد عدد قليل من السنوات أصبح الرجلان فى الموقعين الأولين من الجامعة، الأول رئيسا للجامعة والثانى نائبا لرئيس الجامعة.. وكان الرجلان يعملان فى صمت وذكاء من أجل وفاء هذا الصندوق بحاجات العلاج لطوائف المشتركين فيه.. ومن العجيب أن هذا الصندوق كان يحتفظ على الدوام برصيد متبق يترحل ويزداد عاما بعد عام.. لكنه فى عام واحد فقط استنفد كل رصيده وأصبح مدينا وبحاجة إلى الإعانة.. كيف حدث هذا؟

حدث هذا ببساطة عندما تم التعامل مع حقوق الإنسان بطريقة بيزوقراطية وعقيمة، وعندما فقد المسئولون ثقتهم فى جماهيرهم.

أزيد الأمر تفصيلا فأذكر للقارئ أننى كنت بحكم تخصصى فى القلب، وبحكم تواجدى وعلاقتى بأستاذى رئيس الجامعة أقوم بزيارة عضو الصندوق فى بيته أو فى مستشفاه خلال ساعات من علمنا بمرضه، وكنت بطريقة تلقائية أنقل إليه تحيات أستاذى رئيس الجامعة (ورئيس مجلس إدارة الصندوق أيضا ورئيس اللجنة الطبية فى الوقت ذاته)، وسؤاله له عن أى مكان يريد العلاج فيه فى الداخل أو فى الخارج.. وكانت النتيجة التلقائية والطبيعية هى أن يجيب أكثر هؤلاء بالشكر وبالقول إنهم مطمئنون من هذه الناحية، وإنهم يفضلون البقاء فى منازلهم مع توفير الدواء إذا كان مرتفع الثمن، ومع تحملهم لقيمته إذا كان الدواء بسيط التكلفة!!

حدث هذا معى مرارا وتكرارا، بل بلا أى استثناء فى أية حالة.. لكن ماذا حدث بعد هذا؟

حدث أن الإجراءات بدأت تطول، وبدأ التعامل بين أعضاء هيئة التدريس وبين المسئولين عن علاجهم يتخذ شكل العلاقة بين صاحب طلب وصاحب سلطة، بين مستحق وبين صاحب قرار يعطى مَنْ يريد من المستحقين ويحرم مَنْ يرى حرمانه، أصبحت العلاقة ورقية أيضا، ورق يتحرك من هنا ومن هناك، ويعتمد على تقارير لابد أن تكتب بطريقة معينة.. وهكذا أصبح «المرض الطارئ» أمراً مزعجاً يستدعى أن يتفرغ أحد أصدقاء أو زملاء أو تلاميذ المريض لمتابعة ورقه وتقاريره والانتقال من مكتب إلى مكتب وتسليم الطلب على سركى والاحتفاظ برقم الطلب.. إلخ، ثم التوسط عند اللجان، وفى تجاوز حدود النظم العلاجية العقيمة التى وضعها بيروقراطيون فى التأمين الصحى.. إلخ هذه السلسلة.

ماذا كانت النتيجة؟ كانت النتيجة كما ذكرت من قبل أن كل الرصيد الذى كان فى الصندوق قد نفد فى خلال عام واحد.. لماذا؟ لأن الشعب الذكى

الذى أحس التضييق الشديد لجأ إلى الوسائل التى يتغلب بها على هذا التضييق ويستنفد بها مايعتقد أنه حقه حتى لو أنه لم يكن بحاجة إلى هذا الحق.

وسأضرب مثلاً بسيطاً شهدته بنفسى:

كان أحد أساتذة إحدى الكليات العملية مصاباً بنوع من أنواع أورام الدم القابلة للعلاج الكيماوى، وقد بدأ العلاج بالفعل وبدأت حالته فى التحسن، ولم يكن يمانع فى أن يغطى من جيبه الخاص نفقات العلاج الكيماوى فلم تكن أسعار هذه الأدوية قد زادت إلى حدها المرعب الذى وصلته الآن فى ظل سيطرة شركات الأدوية الأجنبية على ذمم خربة لمسئولين جهلة، لكنه فى ظل نشوء الحاجة إلى إجازات رسمية من العمل كان لابد من أن يسلك فى علاجه الطريق الإدارى من خلال نظام التأمين العلاجى.. فلما رأى هذه المعاناة فى أمر بسيط.. ولما رأى ما آلت إليه الأمور فى تطويل وضياع الوقت، فكر فى حالته إذا ما اقتضى الأمر سفره إلى باريس للعلاج فى معهد الأورام هناك أو لمناظرة حالته، ووجد أن من الأحوط والأسلم أن يبدأ فى استصدار قرار العلاج بالخارج من الآن حتى يكون القرار جاهزاً معه إذا أراد السفر فى أى وقت تشتد عليه وطأة المرض، ومع أن المرض هدأ وخفت وطأته واستجاب للعلاج فإن الأستاذ وجد أن من الأولى به أن يسافر ليعوض التعب الذى بذله حتى استصدر قرار العلاج بالخارج، وبخاصة أن نفقات سفره قد صرفت على هيئة سلفة مؤقتة لابد أن تسوى قبل نهاية العام المالى.

وهكذا سافر هذا الأستاذ ذو المنصب المرموق قبل نهاية العام المالى.

ولو أن السياسة ظلت كما هى قبل اللجوء إلى البيروقراطية المتوحشة فإن هذا الأستاذ لم يكن فى أية حاجة إلى أن يسافر للعلاج وإنما كان شأنه شأن كل الأساتذة سينتظر إلى الصيف أو إلى سفر طبيعى يحضر فيه مؤتمراً علمياً ثم يجرى فحصاً سريعاً على هامش المؤتمر مستعيناً بأى من

زملائه فى البلد الأوروبى الذين يثقون فى مركز طبى أو أستاذ ربما يكون شقيقاً أو صديقاً لأى منهم.

وهكذا كان الأستاذ (أى أستاذ جامعى حقيقى) يسعد بأنه أجرى فحصاً طبياً على هامش حضوره لمؤتمر أو ندوة ولا يشعر بوطأة ما يوحى به السفر من أجل العلاج، والعلاج فقط(!!) وما يستتبع ذلك من أن يعانى من حجز المستشفى وما يقتضيه من إجراءات طوال فى بلاد تدخر مواردها الصحية للحالات التى تتطلب العلاج بالفعل، لا لمجرد الاستشارات السريعة التى لها نظامها الآخر.. لكن العلاج البيروقراطى المصرى لايزال يصر على أن يذهب المريض للعلاج فى مستشفى (كذا) بقسم (كذا) بتكاليف (كذا) فى الفترة (كذا)، وكأنما المرض بضاعة مشحونة أو منقولة.

أعود من حيث بدأت لأكرر أنى تعلمت على الطبيعة أن هذا المثل من التعامل مع الجمهور (أياً كان مستواه) بالاحترام اللائق لحقوق الإنسان، يمثل عاملاً مهماً من عوامل نجاح القائد أو الأستاذ، بل يمثل قبل هذا ركناً من أركان الإيمان الذى لابد أن يتمتع به كل منا إذا ما أراد النجاح، وأعترف أن أستاذى أعطانى شحنات هائلة من الجرعات المعلمة لهذا الخلق الأساسى (ولا أقول النبيل أو الكريم فحسب).

■

كنا فى جامعتنا بفضل عقلية رئيسها الأول الدكتور محمد طلبة عويضة، عليه رحمة الله، ثم عقلية رئيسها الثانى الذى هو أستاذى، وعقلية الأمين العام الشهير فى هذه الجامعة، وهو الأستاذ على البطراوى عليه رحمة الله، كنا أقرب مايكون إلى أقصى قدر من احترام حقوق الإنسان، ولست أريد أن أصدم القارئ ولكن الواجب والأمانة تقتضينى أن أشير إلى حقيقة مهمة وهى أن الرئيس الثالث للجامعة كان أستاذ قانون مبرزاً جاء الجامعة وعجب لهذا القدر من التعامل السلس مع الجماهير بمن فيهم جماهير الأساتذة والخريجين، وقد دفعه الضغط العصبى من مجموعة من الفاسدين الذين

قفزوا إلى مواقع المسئولية إلى موقف مضاد لطبيعته البشرية ولرقيه الفكرى، حتى إنه كان يرى فى هذه السلاسة نوعاً من الفوضى... وكأنما لا يتحقق النظام إلا بقدر من التعقيد والتعطيل.

وقد تبلور الصراع بين فكره التقليدى وبين الروح الأخرى فى موقف لاينسى حدث فى الشهر الأول لرئاسته الجامعة وأشارت إليه الصحف حين ذهب إليه واحد من أساتذة كلية الزراعة المبرزين محتجا على تأخره فى الموافقة على سفره إلى الخارج لحضور مؤتمر علمى على الرغم من أن المذكرة المتضمنة كافة التوقيعات السابقة على توقيعه كانت متاحة فى مكتب الرئيس منذ عشرة أيام، وهنا قال رئيس الجامعة فى ثقة: وهل عشرة أيام كثيرة؟ فأجابه الأستاذ من فوره: إنها تمثل دهراً لأن عادة الجامعة فى سنواتها السابقة أن تنتهى مثل هذه الموافقة فى ٢٤ ساعة على أكثر تقدير، ذلك أن أستاذ الجراحة كان يوقع البريد الجامعى صباحا ومساء، وهكذا كان أقصى تأخير ممكن لا يتعدى ٢٤ ساعة. لم يذكر أستاذ الزراعة الشهير هذا السبب ولا هذه الآلية فى حواره مع رئيس الجامعة الثالث أستاذ القانون، مكتفياً بأن قال له: إن الأمر لم يكن يستغرق أكثر من ٢٤ ساعة، فما كان من رئيس الجامعة أستاذ القانون إلا أن رد عليه بتعبير معناه: إن هذا كان أيام الفوضى! وبسرعة البرق رد عليه أستاذ الزراعة بقوله: ما أحلى تلك الأيام!! فإذا برئيس الجامعة أستاذ القانون العظيم يقول له: ولكنها لن تعود أبداً!!

١٠

وأنت لاتزال تصدقه ؟

طالت رئاسة أستاذى للجامعة ثمانى سنوات كان من حظى فيها أن أكون يده اليمنى، وقد أعطتنى هذه السنوات خبرات عالية وعريضة وعميقة بالإدارة العامة والإدارة الجامعية، كما أعطتنى خبرات لا نهاية لها بالنفس البشرية، وطوابعها، ومظاهرها، وجواهرها، كما أعطتنى ثقة لا حدود لها بالقيم العليا، وبالعمل، وبالفكر، كما أعطتنى أيضا إيماناً لا حدود له بزيف كل ما هو باطل، وإذا كان بعض الذين يقدروننى يشيرون إلى شىء من الحكمة اتصفت به شخصيتى العجولة، فإنى أعتقد أن الفضل فى هذا يعود إلى هذه الخبرة المبكرة التى مارست فيها ما مارست بينما وجدانى متفتح للإدراك، وعقلى متفتح للحكم.

اختلف الناس فى طبيعة خلق أستاذى، وفى طبيعة أدائه لمنصبه فى رياسة الجامعة. أغلبهم كانوا يرونه لايميل إلى الحزم والحسم، وبعضهم يراه حاسما دون إعلان، ومع هذا فقد كان أولئك وهؤلاء جميعاً يقدرونه ويقدرون سياسته على أى نحو، وكنت كثيراً ما أتعرض للسؤال عن رأيى فى أدائه فى جزئية ما، وكنت أجيب بما يليق بإنسان فاهم ومحب وقادر على

التعبير، وسرعان ما أصبحت قادرا على إصدار الأحكام السديدة كما يقول الناس، وكنت أرى أستاذى حاسماً جداً لكنه يدخر الحسم للمواقف التى تتطلب الحسم حتى لا يستخدم هذا السلاح فى كل آن فيفقد حسمه قوته وتأثيره.

أذكر واقعة محددة كمدخل لواقعة أخرى أكثر تحديداً.

الواقعة الأولى حدثت فى الفترة التى يحل فيها موعد تجديد مدة أحد العمداء: ذهب أستاذى ومعه أحد نوابه إلى الكلية التى حل موعد تجديد عميدها لافتتاح أحد المؤتمرات، فإذا بنائب رئيس الجامعة (وكان أقرب مايكون إلى طبيعة السياسيين المحليين على مستوى القرية) يخاطب وكيل الكلية بقوله: أهلا يا سيادة العميد، انتشرت الأراجيف فى الجامعة أن الوكيل سيصبح عميدا وأن العميد الحالى لن ينال التجديد، أصبح العميد لا ينام وكان يستحق عدم النوم كنوع من أنواع العقاب الإلهى، وفى موعد التجديد بعد أسبوع جدد له أستاذى دون أن يحادثه أويخبره، إنما فوجئ العميد بالقرار يصدر.. ذهبت لأستاذى أسأله التفصيل؟

قال: ما معلوماتك عن الموضوع؟

حكيت له ما هو أكيد وما هو أراجيف.

قال: حدث هذا بالفعل، ثم أردف يقول: ولكنى يومها لم أجد أن الموقف يستحق أى تعقيب منى لا بلوم النائب ولا بإبداء الرأى، وليس معنى صمتى أنى أقر تصريحات نائبى غير المسئولة أو أمنيات وكيل الكلية حتى إن كانت مشروعة.

قلت: ولكن الأراجيف انتشرت، وبدت الأمور غير محسومة.

قال: أهناك حسم أكثر مما فعلت؟

قلت: لا.

قال: إنى لم أكن أنظر إلى قضية هذا العميد أو ذاك، وإنما كنت أرسى مبادئ لأنى لست متفرغا لمثل هذا العبث.

■

الموقف الآخر حدث قبل هذا بست سنوات حين أجريت انتخابات نادى هيئة التدريس لأول مرة بعد تولى أستاذى رئاسة الجامعة مباشرة، وبالطبع تمتلئ البورصة بالحديث عن التحالفات والتربيطات والتوجيهات، فضلا عن أثر الجماعات السياسية خارج الجامعة.. إلخ، حضر أستاذى فرز الأصوات العلنى دون أن يعلن عن ذلك قبل الفرز، وجلس فى الصف الأول أمام المنصة التى يجرى عليها الفرز، وبعد انتهاء الفرز إذا به فى صوت هادئ يقول: مادام فلان قد حقق المركز الأول فى الانتخابات فهو الأولى برئاسة النادى، كانت كلمة أستاذى بمثابة القول الفصل الذى أنهى كل ألعاب السحرة قبل أن تبدأ، وفى اليوم التالى مباشرة اجتمع النادى لينتخب الحائز على أكثر الأصوات رئيسا له ولتنتهى مشكلة كانت كفيلة بتمزق أسرة الجامعة لفترة طويلة..

■

كنت أتولى كتابة كلمات أستاذى فى بعض المؤتمرات العلمية التى تعقدها الجامعة، مع أنه كان يفضل فى أغلب الحالات أن يرتجل حديثا متوافقا مع المناسبة أو المؤتمر ولكن لابد من كلمة على مستوى رفيع فى بعض المؤتمرات التى تحضرها وفود أجنبية، أو التى يكون طابعها التخصص الدقيق.

وأذكر من ضمن الكلمات التى أعددتها أنى كتبت كلمة الرئيس فى مؤتمر (أو ندوة) عن التأثيرات المتبادلة بين الأدب العربى والفرنسى، وقد ضمنتها معنى مهما عن الأصالة فى الأدب، وقد وفقت إلى الاستشهاد بعبارة قصيرة كان الرئيس موبوتو يكررها فى أحاديثه منذ أعاد للكونغو اسمها القديم «زائير» وهى قوله:

«إننى لا أنادى بالعودة إلى الأصالة retour ولكن بسرعة الالتجاء إليها Recours».

ومن الطريف أن الوقت لم يسمح لى لتسليم الكلمة لأستاذى إلا وهو داخل إلى قاعة المؤتمر وقد طالعها بسرعة بينما المتحدثون الآخرون يلقون كلماتهم (وكانت الكلمات مترجمة ترجمة فورية أيضا) فلما جاء دوره فى الحديث دهش الحاضرون لمستوى كلمته ولمستوى إلقائه وتمكنه من الإلقاء، وكان قد درس اللغة الفرنسية، وكان بالطبع متفوقا فيها كعادته فى كل المواد الدراسية) فإذا به يقرأ العبارات المكتوبة بالفرنسية بسلاسة شديدة، وإذا بالمسئولين الفرنسيين الذين حضروا المؤتمر يصممون على سؤاله عن ثقافته وجوانبها وهو يناقشهم فى حب وترحاب وينظر إلىّ ويبتسم، وهنا صمم المسئولون الفرنسيون والأساتذة المصريون على أن يحضر جلستهم العلمية الأولى.

بعد أن انتهى اللقاء قال لى أستاذى: لم أكن قد قرأت أى كلمة فرنسية منذ عشرات السنين، ولست أعرف كيف وفقنى الله إلى قراءة الكلمات التى وضعتها فى وسط حديثى... ولكن من أدراك أنى كنت سأستطيع قراءتها؟ قلت: ألم أذكر لك من قبل أن أستاذ اللغة الفرنسية فى مدرسة المنصورة الثانوية لايزال يشيد بنبوغك.. ضحك أستاذى ضحكة صافية وعقب مبتسماً ومنشرحاً بقوله: وأنت لا تزال تصدقه!!

هنا يجب أن أذكر أن هذا الأستاذ العظيم الذى كان أستاذاً لأستاذى وأستاذاً لى ثم أصبحنا زميلين له كان هو الدكتور كمال دسوقى، وكان قد وصل إلى منصب العمادة ومنصب نائب رئيس الجامعة قبل أستاذى مباشرة.

١١

يأكل المنصب وقته!!

كانت لأستاذى وجهة نظر متعادلة أو متزنة فيما يتعلق بالمناصب الأكاديمية والجامعية، وحتى لا أطيل فى تفسير معنى التعادل أو الاتزان فسألقى على القارئ موقفين حدثا فى وقتين متتاليين ودار بينى وبين أستاذى حوار حولهما:

الموقف الأول: كان يتعلق بمنصب الرئاسة فى جامعة قاهرية، وكان أحد المرشحين أستاذا من أساتذتى فى طب القلب، وكان هناك مرشحون آخرون على درجة عالية من النفوذ والكفاية واللمعان، وحين قصصت على أستاذى ملخصا للموقف قال: إن أستاذك بالذات دون هؤلاء جميعا يكون مخطئا لو أنه بذل جهدا أى جهد فى سبيل هذا المنصب.

عجبت لهذا القول من أستاذى وسألته: لماذا؟

قال: يكفيه أنه أستاذ قلب ويمارس مهنته بنجاح فى مدينة القاهرة، وهل هذا شىء قليل؟!

قلت: ولكن هذا لا يتعارض مع ذاك.

قال: بل يأكل المنصب وقته ويشغله بما هو أدنى مما هو مشغول فيه بالفعل.

قلت: فإن جاء المنصب.

قال: إن جاء فبها ونعمت، ولكن ليس عليه ولا له أن يشغل باله بالمنصب على الإطلاق، ويكفيه أنه نائب رئيس الجامعة.. هل تظن أن رئيس الجامعة القادم سيعامله على أنه مرءوسه أو نائبه، لن يحدث هذا بالطبع، بل ربما يصبح موقعه وموقفه أقوى من رئيس الجامعة القادم مهما كان شخصه.

قلت: حتى لو كان القادم هو فلان أو فلان.. أو رئيس الوزراء السابق!

قال: حتى لو كان القادم هو الجن الأزرق شخصيا.

والواقع أن رؤية أستاذى كانت صائبة تماما، وهذا ما حدث بالفعل، اختير أقدم عمداء الكليات رئيسا للجامعة حلا لكثرة الترشيحات وصراعات كبار المسئولين القادرين على الوصول بآرائهم إلى رئيس الجمهورية، وأصبح موقف أستاذى أقوى مما لو قد أصبح رئيسا للجامعة، وفضلا عن هذا فقد احتفظ لنفسه ولمرضاه بوقته، ولا يزال أستاذى يعامل فى جامعته على أنه كان أكبر من رئيس لها.

■

الموقف الثانى: حدث فى فترة قريبة من الموقف الأول حين خلا منصب رئيس قسم الجراحة فى جامعة قاهرية كبيرة وحل الدور على أستاذ عظيم من كافة الوجوه خلقا، وعلما، وأصلا، وفصلا، بل إن والده نفسه (فى جيله) كان شأنه شأن أستاذى رئيس قسم الجراحة وعميد الكلية ومدير الجامعة، ولكن هذا الأستاذ العظيم اعتذر عن تولى المنصب وكان توليه المنصب كفيلا حسب نظام الأقدميات وتواريخ الميلاد أن يحجب أستاذين آخرين عن تولى المنصب فى الفترة التى يظل هو فيها رئيسا حتى تقاعده، وكان هذان الأستاذان من ذوى الشأن العظيم لكنهما بأى حال لا يمثلان ما يمثل

الأستاذ الأول من اجتماع القيمة، والسمعة، بل إن كلا منهما كان كفيلا بأن يفجر بعض المشكلات بسبب مكونات كادره العلمى، ولهذا فإن اعتذار الأستاذ الأول عن تولى منصبه كان كفيلا بأن يصيب العميد ورئيس الجامعة بالعصاب الشديد، ونظرا لأن الأستاذ الأول لم يكن قد أعلن مبكرا عن رغبته فى الاعتذار فإن رئاسات الجامعة والكلية وجدت نفسها فجأة فى مواجهة المشكلة، ولم يعدم العميد - وكان من أذكى الناس - تصرفا مؤقتا يحاول به أن يعطى نفسه فرصة لإقناع الأستاذ الأول بتولى المنصب الذى هو حقه ودوره الطبيعى، ولهذا فإنه استصدر من رئيس الجامعة قرارا بإسناد رئاسة قسم الجراحة إلى الأستاذ الثانى لمدة شهر على سبيل أنه قائم بالعمل، وبدأ العميد (وكان عزيزا على أستاذى وعلىّ أيضا) فى سوق أمة سيدنا محمد (عليه الصلاة والسلام) على الأستاذ الأول كى يقبل الرئاسة، وباءت كل هذه المحاولات بالفشل.

قصصت على أستاذى ملخص ما حدث على نحو ما وصلت به الأخبار إلىّ، وقصصت عليه جهود مَنْ حاولوا مع زميله الأستاذ الأول.. وكنت أظن أستاذى سيبدى إعجابه بهذا الترفع الذى أبداه صديقه أو زميله، لكنى فوجئت بما لم أتوقعه، إذ قال أستاذى: إن هذا الأستاذ مخطئ تماما.

قلت: كيف وهو يتنازل عن حقه؟

قال: لا يا محمد إن تنازله هذا نوع من أنواع الأنانية لأنه يعلم أن كليته وأقسام الجراحة بحاجة إليه وإلى حكمته وإلى مهارته وإلى خلقه، وأنه برئاسته سيؤدى دورا وطنيا وعلميا مهما، فكيف يجوز له من أجل راحة البال أن يتنازل عن أداء هذا الدور!

قلت: ولكن ربما كان رأيه فى نفسه أقل من رأينا فيه.

قال: لا.. إن الأمر لايحتمل أى وجهة نظر، ولا وجه للمقارنة بينه وبين غيره، وأعتقد أنه يعرف قيمة نفسه تماما.

ظللت مع أستاذى أجادله وأناقشه على وجوه كثيرة من وجوه الحديث عن العزة والترفع والسمو والتعالى والإيثار وتفضيل الغير، وألا يزكى الإنسان نفسه وأن يتهيب الإنسان الأمانة حتى لا يكون ظلوما جهولا.. وهو يناقشنى طيلة ثلاث ساعات متصلة حتى اقتنعت تماما بأن كل ما قلته فى ذلك اليوم كان نوعا من أنواع عدم النضج، وأن آراء أستاذى فى هذه الجزئية كانت هى النضج بعينه والصواب بعينه، ولهذا يرانى القارئ وقد تنازلت تماما عن إيراد آرائى فى هذه المحاورة الطويلة لأنى أراها أقل من أن تسجل .. ولكن بقى شىء منها لا أستطيع أن أتجاوزه، فقد حدث عندما اكتشفت أننا قضينا ثلاث ساعات فى هذه المحاورة أن علقت بقولى ربما أن أحدا ممن ذهبوا لإقناع الأستاذ الأول لم يبذل معه ما بذلت معى من جهد ووقت، فإذا بأستاذى يقول لى بذكائه العبقرى إننى لم أكن أناقشك فى موضوعه وإنما كنت أناقشك أنت فيما تهفو إليه.

قلت: وما الذى أهفو إليه؟

قال: أن تأتيك الأيام مرة بعد أخرى بالفرصة لكى تعتذر عن قبول مثل هذه المسئوليات، وتظن نفسك بذلك متساميا ومتميزا على الآخرين.

قلت: كأنك تجهض أحلامى فى العظمة.

قال: نعم، ولكنك نسيت كلمة فى نهاية جملتك.

قلت : وما هى؟

قال: أن تصف العظمة بالزائفة.

قلت: وهل ترانى فى قادم الأيام سأسلك مسلك هذا الأستاذ؟

قال: ١٠٠٪.

قلت: ولماذا تقولها بكل هذا التأكيد؟ هل لأنى معجب به اليوم؟

قال: بل لأنك تظهر نوعا من الزهو والترفع المسبق يجعل محادثتك فى مثل هذه الأمور نوعا من العبث.

قلت: أفأنا كذلك؟!

قال: وأكثر، وأشاح بيده بما يعنى إلى ما لا نهاية.

قلت: لكننى كما تعرف طموح وعجول ومحب للرياسة والتقدم.

قال: هذا هو ما يظهر منك.

قلت: أليس هذا حقيقة؟

قال: هى حقيقة تخفى حقيقة أخرى تتغلب عليها.

قلت: ... لا أعرف.

قال: ولن تعرف.

الحكيم الجراح

١٢

البيوت المفتوحة

دار الخيال

ذات مرة فاجأتنى الجامعة، ولا أقول فاجأنى أستاذى، مفاجأة لم تكن سارة لى، أو بالأحرى لم تكن مريحة، إذ وجدت أكثر من عميد يقابلوننى بعد خروجهم من مجلس الجامعة ويخبروننى بأنه وقع علىّ الاختيار عضوا فى مجلس إدارة مطبعة الجامعة من الخارج.

ذهبت لأستاذى وكلى ضيق وألم لأنى لم أكن أريد هذه المسئولية بأى صورة من الصور، فإذا به على عادته يسبقنى بالحديث ويقول: إن نائب رئيس الجامعة لشئون التعليم والطلاب الذى هو رئيس مجلس إدارة المطبعة هو الذى اقترح هذا فى مجلس الجامعة وأصر عليه.وإن جميع العمداء وأعضاء مجلس الجامعة أثنوا على هذا الاختيار.

قلت: ولكنك تعلم أنى رفضت ما هو أكثر من هذا منذ عامين ومنذ عام، وكنت أشير إلى إلحاح نائب رئيس الجامعة السابق، الذى هو أفضل أساتذتنا على الإطلاق، فى تعيينى مشرفا على المطبعة ودار الجامعة للنشر (وكنت قد أسستها ووضعت نظامها) بالإضافة إلى مؤسسات الجامعة الثقافية، وأنشطتها، على أن يكون هذا بصلاحيات عميد، مع أنى لم أكن قد وصلت إلى الأستاذية، ولا إلى نصفها.

قال: لكن الوضع الجديد أفضل.

قلت: كيف؟

قال: لن تكون الطبيب المعالج وإنما ستكون استشاريا فحسب.

هدأت أعصابى.. وبعد قليل قال أستاذى: ألا تذكر قرار المستشارين فى جامعة القاهرة؟

قلت: أذكره،.

قال: إن هذا الوضع أفضل.

قلت: كيف يكون أفضل؟

قال: إن مستشار رئيس الجامعة مرتبط بشخص الرئيس، ولكن عضو مجلس إدارة أى شىء لا يرتبط بشخص الرئيس.

قلت: أنت الذى علمتنى الا أحب هذا الوضع أو ذاك.

قال: لقد فوجئت بالعرض فى مجلس الجامعة ولم أكن أملك إلا الثناء على اختيارك.

قلت: أنت تعرف أنه لا وقت عندى للذهاب، ولست فى السن التى أسعى فيها إلى مناصب شرفية بدون أداء عمل، وأنت تعرف طبيعة عمل مثل هذه المجالس، فكيف أقودهم وأنا أصغرهم والأمر لايخلو من أغراض!

قال: أعرف كل هذا.

قلت: وما الحل؟

قال: أعدك أن أذهب معك بنفسى إذا اقتضى الأمر سلطة عليا.

سكت على مضض وظننت كلام أستاذى نوعا من المراضاة.

ولكن حدث ما لم أكن أتوقعه.. فلم تمض شهور حتى عين أحد العمداء

نائبا لرئيس الجامعة لشئون البيئة ولم يكن أحد يشغل هذا المنصب قبل هذا، ونقلت تبعية المطبعة باعتبارها وحدة ذات طابع خاص إلى إشرافه، وهكذا ظل تشكيل مجلس الإدارة كما هو باستثناء تغيير رئيسه، وإذا بإدارة المطبعة مستعينة بالأمين العام وبنائب رئيس الجامعة تعد مذكرة مفصلة بالاستغناء عن العمال الموسميين فى المطبعة، وجاءنى جدول الأعمال ومحضر الجلسة السابقة وصور المذكرات المعروضة على المجلس ومنها هذه المذكرة، اتصلت بالمطبعة ولم يكن صعباً أن أعرف بسرعة أن عدد العمال الموسميين قد وصل إلى أكثر من مائتى عامل.

انزعجت أيما انزعاج وذهبت إلى أستاذى من فورى وقلت له: إن المجلس سينعقد بعد ساعة فى مقر المطبعة وإنهم مقدمون على كارثة لن تكون أمنية فحسب ولكنها إنسانية أيضا، زم أستاذى شفتيه وأطرق صامتا وفى فترة صمته ذكرته بوعده القديم بأن يحضر معى المجلس إذا احتاج الأمر، ولكنى تعجبت كيف يحضر رئيس الجامعة مجلسا فرعيا يرأسه نائب رئيس الجامعة، ولأنى لم أتعود الإحجام عن التعبير عما فى رأيى فقد رويت له ما كان يدور بخاطرى من رؤيتين متعارضتين، وإذا به يسألنى: هل سيارتك وسائقك معك؟

قلت: نعم.

قال: أهو سائقك الفتوة الذى لا تحب أدائه فى شوارع الزقازيق ؟

قلت: نعم.

قال: فسأذهب معك بسيارتك لأن سيارتى اليوم ذهبت للصيانة ولن تعود قبل الساعة الثانية، على أن ينتظر سائقك سائقى ولا يخبر أحداً أبداً أنى فى الطريق إلى مطبعة الجامعة ولا إلى غيرها، ثم يأتيان معاً عندما يعود سائقى.

حتى دخلنا المطبعة لم يكن أحد من العاملين يدرك أن رئيس الجامعة قد جاء بنفسه ليحمى حقوق العاملين الموسميين الذى يعتزم الجهابذة إنهاء

عملهم بتأشيرة واحدة فى جلسة من جلسات مجلس الإدارة، لن أذكر شيئا عن سخونة المناقشات التى دارت فى ذلك اليوم حين كنت أنا وأستاذى فى ناحية، وكان الباقون فى ناحية أخرى، ولكن يكفى أن أذكر أن أحد العمداء لم يجد حرجا فى أن يشير إلىّ مهدداً ومذكراً بأننى أنا نفسى كنت قبل ٦ سنوات أطالب بمنع تعيين هؤلاء من الأساس.. ولم أنكر هذا بالطبع أنى كنت أمنع تعيينهم حين كان عددهم لايتعدى خمسة، أما الآن وقد وصلوا إلى أكثر من مائتين على مدى ٦ سنوات فلم يعد الأمر مرتبطا بالصواب والخطأ وإنما أصبح مرتبطا بالسلام الاجتماعى وبيوت مفتوحة، وإذا بى أهدده، على الرغم من مكانته، بأن تعكير السلام الاجتماعى شأنه فى القانون شأن الإساءة إلى الوحدة الوطنية تماماً.

رد أحد أعضاء مجلس الإدارة علىّ مستغربا من تعبير السلام الاجتماعى، سائلا: من أين يصرف هذا السلام الاجتماعى؟ وما هو المقصود به؟ وما علاقته بما نحن فيه؟

قلت: إن هذه الأمور لا تبسط، ولكن لابد من تبسيطها، والمسألة تتصل بالتحولات التى أطلقها السادات فى عهده بعد انتصار أكتوبر، فالديمقراطية (على سبيل المثال) قد تفتح المجال لمناقشات ومناظرات تهدد الوحدة الوطنية، ولهذا كان لابد من قانون يحمى الوحدة الوطنية من تجاوزات الديمقراطية.

قال عضو مجلس الإدارة: قد أفهم هذا مع تحفظ، لكنى لا أفهم السلام الاجتماعى الذى تتهمنا بتهديده، وتهددنا بالعقاب على هذه التهمة.

قلت: إن التحول من الاشتراكية إلى اقتصاد السوق (وهو ما سمى بالانفتاح الاقتصادى) ينشئ أوضاعا كالتى نحن فيها الآن فى هذه الجلسة، حيث يظن الأكاديميون والرسميون أن واجبهم هو إمضاء ما يظنونه صوابا.

قاطعنى عضو آخر. وقال: أرجوك أن تعدل عبارتك فتضع «مايعتقدون» بدلا من قولك «ما يظنون».

قلت: أوافق، لكنى ما اخترت هذا الفعل إلا لكى أحفظ لكم خط الرجعة.

قال الرجل: مع أنى لا أفهم ما تعنى إلا أنى أحس فى نبرتك إخلاصا لنا وصدقا، فلا تنس أن تشرح ما تعنى بخط الرجعة بعد أن تنتهى من مسألة السلام الاجتماعى.

قلت: إن مثل هذا الذى نناقشه اليوم من تطبيق قواعد الاقتصاد والإدارة الصحيحة، ربما قاد، كما تعلمون، إلى إغلاق بيوت، وربما قاد إلى مظاهرات تدمر من المنشآت والآلات أكثر مما يوفره من مال!

هنا قال أستاذى الجراح: لا تقل «ربما»، احذفها وضع بدلا منها أداة تفيد التوكيد، فلاشك أن هذا سيحدث عندما يجد عمال اليومية هؤلاء أنفسهم فى الشارع وقد خسروا موارد رزقهم، ثم توجه بكلامه إلى المجتمعين وقال:

هل تظنونهم ياسادة سيخرجون الآن هاتفين لكم لأنكم أصلحتم ميزانية المطبعة، أو وفرتم لها بعض المال؟

هل ستظنونهم يقدمون لكم باقات ورد على إنجازكم خطوة إصلاحية من وجهة نظركم؟؟

ألا تعرفون أنهم سيكونون فى هذه الحالة أقرب إلى الوصف العامى: فاقد.. فاقد، فلا يهمهم أن يشفوا غليلهم بتكسير كل ما يصادفهم.. فماذا تفعلون حينذاك؟!

ولكن فلنؤجل حديثنا حتى ينتهى محمد من كلامه.

قلت: ما عاد بى حاجة إلى المزيد، فقد اتضح المعنى، لقد وضعت قوانين حماية السلام الاجتماعى من أجل تبصير المسئولين من أمثالنا بأهمية تقدير الموقف الاجتماعى لقرارات التحول الاقتصادى فى مستوياته المختلفة، وضرورة حساب الآثار الإنسانية، وليس معنى هذا أن تتقاعس الدولة، ولا إدارتها عن خطوات الإصلاح الاقتصادى، لكن معناه أن تحسب

حساب القرارات، وأن تصدر القرارات التى تعالج الآثار الجانبية فى الوقت الذى تصدر فيه قرارات الإصلاح... تماما كما نصف الدواء ومعه دواء آخر يعالج أثرا جانبيا له... بل إن الطب والصيدلة كما تعلمون جميعا قد تقدما إلى حد دمج الدوائين معا فى قرص واحد إذا كان الأثر الجانبى من الشيوع إلى حد كبير!!

أخذ أستاذى هذا المعنى فأعاد شرحه بلغة جميلة أزالت كل التوتر الذى كان بين الفريقين، وجعلت الجميع على نحو ما كان يفعل دائما يعودون يدا واحدة، وروحا واحدة، وقد اجتمعوا على حبه، وعلى حب ما يقوله، وعلى حب الطريقة التى يقدم بها الأفكار.

ثم التفت أستاذى من دون أن يبدو وكأنه يقطع تواصل الحديث وقال لى: أتظن أن السادات كان واعيا إلى هذا الحد على نحو ما صورت لنا الآن ولهذا وضع هذه القوانين مبكرا؟ أتظنه وجد مَنْ عبر عن فكره على نحو ما تعبر الآن؟ إنى لا أظن أنى قرأت لأحد من رجاله ما دافع به عن سياساته الداخلية على نحو ما تفعل أنت.. ألهذا كان يحبك؟

قلت: بل لهذا كنت أحبه ولازلت أحبه.

سارع أحد أساتذتنا من المحبين لى ولأستاذى وقال لأستاذى: ألست أنت القائل لمحمد إننا نحسد السادات عليه حيا وميتا؟

قال أستاذى: وها هى الأيام تثبت أنى لم أكن أجامل.

قلت: ما هذا إلا جزء يسير من فيض عطف غزير، وماهو إلا تقدير أكبر مما أستحقه.

قال أحد أساتذتنا الحاضرين فى شبه دعابة: فإذا كان الأمر كذلك فإنى أقترح على المجلس إكراما لكما وللسادات أيضا أن نعدل عما انتويناه من قرار.

وقال آخر فى دعابة أخرى وقد انفرجت أسارير الجميع: لكن هل يجوز لى أن أستخدم سلاح التهديد بالعقاب على تهديد السلام الاجتماعى على مستوى بيتى؟!

قلت: بالطبع لا.

قال أستاذى: بالطبع نعم.

قال السائل: فلم قلت يا محمد: لا.

قلت: أستاذى أرحم منى.

قال أستاذى: إنما الأرحم هو مَنْ فتح باب الرحمة بعد إغلاقه، لا مَنْ زاد جرعتها بعد فتح الباب.

قال أستاذ الاقتصاد فى حب صادق: فاللهم اجعل لنا من رحمتكماعائداً ونصيبا.

وقال أستاذ المحاصيل فى لطف بالغ: وأرزقنى أنا أيضا محصولا أكبرْ.

وظل الأمر على هذا النحو من اللطف والمحبة حتى انتهينا من بقية الموضوعات المعروضة فى جلسة ذلك اليوم.

....

خرجت من هذا الاجتماع ومعى أستاذى وكانت سيارته قد لحقت به قرب الساعة الثانية، فاستقلها، وركبت سيارتى إلى القاهرة ، وكان السائق فيما يبدو متعبا فاستأذنته فى أن أقود السيارة بدلا منه، وكنت لا أفتأ أتوقف لأجفف دموعى بعدما تبتل بها عيناى وأنا على مقود السيارة.. وربما كانت بعض نعم الله المتتالية علىّ بفضل دعاء هؤلاء العمال المساكين الذين عرفوا فى ثوانٍ معدودة كل ما حدث فى ذلك اليوم دون أن أكون مرشحا أسعى إلى أصواتهم.. وكانت النتيجة أنهم عاملونا، أستاذى وأنا، بما هو أكثر بكثير من الرّفع على الأعناق..

١٣

جحودنا لأساتذتنا وآبائنا

فى يوم من أيام الصيف الطويلة.. هتف بى هاتف أن أتوجه إلى مستشفى الجامعة، ففعلت، وبقيت حتى ما بعد العشاء، ثم توجهت إلى أستاذى فى مستشفاه الخاص، كان قد مر وقت طويل دون أن نلتقى فأخذنا الحديث من العاشرة حتى ما قبل الفجر، والأساتذة والزملاء يدخلون ويخرجون ويشتركون فى بعض الحديث أو يلقون التحيات ويستأذنون أو يسألون بسرعة عن أمور جارية، وفى أثناء هذا الحوار الطويل قام أستاذى بالكشف على ثلاثة مرضى جدد، وحول إلىّ أحد الثلاثة لأبدى رأيى فى حالة قلبه، ومدى تحمله للجراحة.

بعد الواحدة بدقائق دخل أحد الأساتذة الذين يكبروننى ويصغرون الأستاذ، وكانوا كثيرين فى تلك الليلة، وقال لأستاذنا الكبير: هاقد عرفنا علاجك النفسانى، نحضر لك محمداً فتصبح على هذه الحالة من السرور والحبور، كانت العبارة مفاجئة لى تماما، وظهر اندهاشى على وجهى، وتدعم أيضا بسؤال عما يعنيه المتحدث. فإذا به يعلن فى مواجهة الأستاذ الكبير أنهم جميعا فشلوا فى إدخال السعادة على قلب الأستاذ الكبير طيلة الأيام الأربعة الماضية، فقد ظل متضايقا برما بالناس وبالحياة حتى حضرت

فتهللت أساريره، ثم امتد الحوار وعادت إليه البسمة الصافية والضحكة المجلجلة على حد تعبيرهم.

فى أثناء استماعى لهذا التعليق كان أربعة آخرون من زملائنا قد دخلوا غرفة الأستاذ الكبير دون أن أحس وإذا بهم يؤكدون على هذا المعنى الذى لخصه زميلنا، كدت أذوب حياء وخجلا فى هذه اللحظة فوجهت رأسى إلى الأرض ثم رفعتها فإذا بأستاذى الكبير هو الآخر فى حالة قريبة من هذه الحالة، وكأنما هو ذلك الشاب الخجول الذى ضبط متلبسا بإخفاء عاطفة تعود أن تكون خاصة به لا بالناس..

كان لابد لأحدنا من أن يقطع الصمت، وآثرت أن أكون أنا البادئ بالسؤال عما أهم أستاذى طيلة الأيام الأربعة الماضية، وأجاب هو ببساطة شديدة: لا شىء، وإذا بأحد زملائنا يسأل بطريقة مباشرة: ولماذا يا ترى لم تنفرج أسارير سيادتكم إلا الآن؟ فى هذه اللحظة خشيت أن يتكرر الحديث الذى أخجلنى منذ دقائق فإذا بى أجيب فى سرعة بالغة: إنه الحوار العقلى، وإذا أستاذى يؤمن على كلامى.

وإذا بزميل ثالث يقول: إننا عادة لا نستريح إلا إذا أرحنا عقولنا من الفكر، وأنتما يا سبحان الله لا تستريحان إلا إذا أتعبتموها فى الفكر، وفى سرعة أجبت بأن ملاحظته ذكية لكنها تحتاج تعديلا بسيطا بوضع كلمة «أمتعتموها» بدلا من «أتعبتموها».. وعند هذا الحد وقفت.. ولكن أستاذى بدأ يشرح على مدى ساعة كاملة كيف أن الصورة الفكرية المستقرة تتعبه ولا تريحه، وكيف أن الجراحة التقليدية لا تمثل له السعادة التى تمثلها الجراحة الصعبة أو المعقدة، وكيف أن الحالات الروتينية تمثل عبئا على أعصابه لأنها تحرمه نعمة التفكير التى يتمنى ألا يحرم منها، ووصل أستاذى إلى أن يقول إنه لايعتبر الموت العقلى إلا ذلك الذى يرتبط بالتوقف عن التفكير، وأضاف أن هذا التوقف كفيل بوقوف الحضارات تمهيدا لانحدارها إلى مرحلة الأفول.

بعد هذه «المحاضرة» التى امتدت ساعة كاملة بدأ الحاضرون أحاديث متعددة يشرحون بها الموقف حتى تجاوزنا الفجر.

وطيلة هذا الحوار كانت طيبة أستاذنا تسمح للمعارضات الشقية أن تلقى فى وسط حديثه، وكانت ألمعيته قادرة على أن تتصدى لكل قفشة بقفشة أذكى منها بكثير، ولولا أن الوقت قد تأخر لكان زملاؤنا قد بقوا فى الحوار ساعات أخرى.

بعد خروجنا توقفت مع الزميل صاحب التعقيب الأول أسأله عما أهم أستاذنا وأحزنه، فقال: لا نعرف ولا يهمنا أن نعرف مادمنا قد عرفنا العلاج.

قلت: ولكنك أحرجتنى بمديحك.

قال: نعم أحسست بخجلك، وخجل الأستاذ من أجلك، ولم أكن أتصور أن يحدث هذا منك أو منه.

قلت: ولا أنا كنت أتصور هذا الموقف فى يوم من الأيام.

قال: يبدو أنك لا تعرف قيمة نفسك ومكانتها عند الأستاذ، فصمت.. فاستطرد يقول: سألخص لك الأمر بأن أقول إنه لا ينشرح عند حضورك فحسب ولكنه ينشرح إذا جاء ذكر اسمك.

قلت: إنك تتزيد.

قال: وما هو هدفى؟ وهل لى حاجة عندك؟

قلت: ولكنك تبالغ إكراما لى.

قال: ليست المسألة إكراما ولا مجاملة، ولكن لهذا الرجل فضل كبير علينا جميعا كما تعرف، ونحن الآن بإخلاص شديد نسعى إلى أن نرد له بعض الفضل، وهكذا بدأنا نلاحظ ما يسعده ونلاحظ ما يسوؤه، ونحاول أن نستزيد مما يسعده، وهذا كله يتطلب منا هذا القدر من الملاحظة الدقيقة،

ولولا هذا ما عرفنا ما عرفناه، وليس لى أن أطلب منك فى ظل انشغالك أن تكثر من لقائك به، لكنى أطلب منك أن تفهم مدى مايمثله هذا الطلب.

■

طوال طريق عودتى المصاحبة لشقشقة الفجر، ونور الصباح، ومع ما تهيئه الوحدة من فرصة للتفكير الهادئ، وعلى مدى الطريق الذى يكاد يكون خاليا دون أن يدفعنى إلى إسراع، وعلى مدى ساعتين أخذت أفكر فى هذا الذى اكتشفته فى هذه الليلة، لم أكن أدرك أن سعادة الأساتذة بتلاميذهم تمثل هذا القدر ولا هذه الأهمية، ثم أخذت أفكر فى الوجه الآخر للقضية، وهو الجحود الذى نعامل به أساتذتنا دون أن ندرى، وهو ذاته تقريبا الذى نعامل به آباءنا دون أن ندرى.

فى هذه الساعة تذكرت العبارة الجميلة التى كان والدى رحمه الله يدفعنى بها إلى استئناف الحديث فيقول: «زدنى من حديثك يا سعد»، واسترجعت أحاديثى مع أستاذى فإذا به كان هو الآخر يقول بملامحه: «زدنى من حديثك يا سعد».

والحق أنى لا أستطيع أن أفىّ الحديث عن جحودى لوالدىّ أو لأساتذتى حقه.. ولا أظن أن ما بقى من عمرى يكفينى لأن أكفر عن بعض هذا الجحود.. وما بالك بإنسان يقدمه والداه وأساتذته للناس على أطباق من ذهب فيظن نفسه مستحقاً للذهب، ويظن الذهب بعض ترابه.. وما بالك بإنسان يصنعه والداه وأساتذته على أعينهم خطوة خطوة وهو يظن أنه صنع نفسه ولا يكف عن الحديث عن صنيعه الكاذب هذا، منكرا أصحاب الفضل الحقيقيين.

١٤

جمال المصادفة

حدث لى موقفان طريفان فى وسط مجتمعات كبيرة كان لابد لى فيهما من أن أخبر بهما أستاذى، والموقفان متناقضان تماما، نبدأ بالأول الذى هو خير، كان قد أقيم حفل كبير لتأبين فضيلة الشيخ أحمد حسن الباقورى وأعلن عن الحفل فى زمن قريب جدا من موعد إقامته، وأردت أن أشارك فاتصلت بالمسئولين عن الحفل وذكرت اسمى بدون لقب الدكتور فقيل لى: أهلا وسهلا بك، ما عليك إلا أن تحضر، وقد عجبت لأن المسئول عن الحفل لم يكلف نفسه (كالعادة فى مثل هذه الأحوال) أن يسألنى مرة ثانية عن اسمى أو عن وظيفتى أو عن الصفة التى سيقدمنى بها أو عما إذا كانت كلمتى مكتوبة أو مرتجلة، وكنت أشك كثيرا فى أن يكون قد استوعب اسمى من مجرد ذكرى لاسمى فى بداية المكالمة، ولم يكن لى أن أتزيد فأطلب إليه أن يسألنى عما لم يسألنى عنه.

على كل الأحوال فإنى لم أكلف نفسى شيئا مما لم يكلف المسئول به نفسه، ومساء يوم الحفل ذهبت إليه فرحب بى وقال: استعد ستتحدث فى البداية بعد الوزراء مباشرة، عجبت أيضا ولكنى شغلت بالتوتر الذى يسبق مثل هذه الخطب المرتجلة، ثم إذا بمقدم الحفل يعلن أننا سنستمع الآن إلى كلمة الجامعات

المصرية وسيلقيها الدكتور «فلان» ممثلا لنفسه وللأستاذ الدكتور فلان رئيس جامعة الزقازيق، لم يكن عندى وقت للتفكير فى هذا الذى حدث وكيف حدث، ألقيت كلمتى ولقيت الكلمة الاستحسان، ولكنى شغلت عنه بالبحث عن تليفون لأتصل بأستاذى ولأنهى له ما حدث على نحو ما حدث، فقد خشيت أن يكون قد حدث لبس فى الموقف، وأن أكون قد حللت محل آخر كلف بهذه المهمة، وأتيت قبله، فتصرف مقدم الحفل من ذاكرته على هذا النحو الجائز!!

استمع إلىّ أستاذى فى هدوء كعادته، وإذا به يبتسم ويقول: وما سر جزعك وانزعاجك؟

قلت: لأننى لم أعرض عليك الكلمة ولم أكتبها أصلا، ولم أكن أنوى التحدث باسم جامعتنا فضلا عن الجامعات المصرية كلها.

قال: وماذا بعد؟

قلت: ولم أقل إننى من جامعة الزقازيق ولم أعلن شرف تلمذتى لك.

قال: هل تعرف مقدم الحفل؟

قلت: أعرف اسمه.

قال أستاذى: هل هو فلان؟

قلت وأنا أعجب: نعم.

قال وهو يضحك: إنه يعرفك جيدا، إنه من أبناء عمومتى وأراد أن يكرمنى فى شخصك.

■

فى فترة قريبة من تاريخ هذه القصة كنت فى تجمع من التجمعات وإذا ببعض الأدباء قد اجتمعوا حول وزير جديد يهنئونه بالوزارة، وكان هذا الوزير يعرفهم بحكم هوايته للشعر وكان مهندسا، كما كان قبل توليه الوزارة عضوا فى البرلمان، قدمنى أحد الشعراء إليه على أننى أستاذ فى جامعة

الزقازيق، وكنت لم أصل بعد إلى درجة مدرس، وإذا بالرجل الذى كان قد وصل قبل الوزارة إلى منصب وكيل أول وزارة يقول فى صوت عال ونبرات مقصودة وكأنه يريد أن ينقل عنه هذا التصريح: إن الأولى أن يجعلوا هذا الطبيب العالم الأديب الذى تعرفه مصر كلها رئيسا للجامعة بدلا من رئيسها الحالى، صعقت وذهلت وفقدت وعيى لمنحى منصبا لايزال بينى وبينه بالقانون ما لايقل عن خمسة عشر عاما، وأخذ ذلك الوزير الحالى يفحش القول فى حق أستاذى، وكانت هذه من المرات النادرة التى لا تتعدى أصابع اليد الواحدة التى لقيت فيها مَنْ لا يعرف لأستاذى فضله.

قلت: ياسيدى ولكننى مازلت صغيرا على المنصب فضلا عن أن الرئيس هو والدى وأستاذى وهو أفضل الناس لهذا الموقع، وهو لايرد لأحد طلبا ولا يتأخر لأحد عن خدمة، بينما أنا لا أستطيع هذا ولن أستطيعه.

قال: لا أظن ذلك صحيحا.

قلت: لماذا؟

قال: إنه حاربنى فى مستقبل ابنى.

قلت: هذا هو خامس المستحيلات.

قال: وما رابعها؟

قلت: المستحيل نفسه.

قال: كأنك فيلسوف أيضا.

قلت: إنى لأعجب مما تقول ولا أظنك تتحدث عن أستاذى.

قال: سله وهو يخبرك.. وانصرف الوزير إلى ما حضر من أجله فى ذلك الصباح.

ذهبت إلى أستاذى فلم يتعرف على الوزير من أول ما قصصت عليه اسمه، فبدأت أصف ملامحه الجسدية والنفسية.

قال: تقصد ذلك.. الذى كان عضوا فى البرلمان والذى كان صديقا لرئيس البرلمان.

قلت: نعم.

قال: تذكرته ... هل أصبح وزيرا؟

قلت: نعم، ذلك أن أستاذى لم يكن قد عرف الرجل بالاسم وإنما عرفه بما فى ذاكرته عن الشخص الماثل أمامه، ولهذا فإنه لم يستدع الاسم من ذاكرته وإنما استدعى صورة الشخص بعدما وصفته له، وهذا سلوك شائع بالطبع فى مثل أعمارنا ومهننا.

قال أستاذى وهو يضحك: ذكرتنى بما حدث من حديثى مع نفسى مع شخصية مشابهة، لقد حدثت نفسى يوم اختاروه وزيرا لماذا لم يجروا له كشف هيئة؟

قلت: وتريد تطبيق القاعدة نفسها فى حالة هذا الوزير.

قال: بلى.

قلت: ما قصته؟

قال: أعجب من العجب، إنه يظن أن فى وسعى أن أقبل ابنه فى كلية الهندسة لمجرد أنه حصل على دبلوم من معهد صناعى متوسط.

قلت مشدوها: ألا يعرف قواعد التنسيق؟

قال: إن الأدهى والأمر أنه أخذ يضغط علىّ برئيس مجلس الشعب، ومع حبى واحترامى له فإنى لا أستطيع ولا هو يستطيع أن يفعل شيئا له.

قلت: وماذا كان رئيس البرلمان يفعل؟

قال: كان يكرر علىّ أن أحسن معاملته.

قلت: ألم يكلف نفسه شرح القاعدة له.

قال: وهل ترى صديقك الوزير الشاعر هذا قادرا على فهم القاعدة أو غير القاعدة؟

قلت: صاحب الحاجة أرعن.

قال: ولكننا لسنا ملزمين بأن نكون مثله.

قلت: أنسيت قصة سلفك فى الخرطوم؟

قال: ربما لا أعرفها... ذكرنى.

قلت: يروى أن واحدا من رؤساء وزراء السودان السابقين وكان عزيزا على قلوب المصريين اصطحب أحد الشبان من أقربائه إلى مدير فرع جامعة القاهرة فى الخرطوم وطلب إليه أن يلحقه بالجامعة فرحب المدير (الذى صار بعد ذلك رئيسا مؤسسا لجامعتنا والذى خلفه أستاذى مباشرة فى الرياسة) وسأل الطالب عن مجموعه فقال رئيس الوزراء: إنه لم يحصل على الثانوية، هنا ظن المدير أنه راسب فى الثانوية فإذا به لم يلتحق بالتعليم الثانوى من الأساس، واستمر النقاش هكذا مرحلة مرحلة أو سنة سنة بطريقة تراجعية حتى ذكر رئيس الوزراء أن الفتى فى مستواه يناظر طالب السنة الرابعة الابتدائية، وكانت لمدير جامعة القاهرة فرع الخرطوم أعصاب فولاذية وقدرة على التحمل وعلى تقديم الحلول، فإذا به يعد رئيس الوزراء أنه سيلحق له الفتى فوراً بالجامعة، بل إنه فى لمحة خاطفة طلب إلى أحد كبار جلسائه أن يتفضل و يصحب الشاب مباشرة إلى المسئول عن الجامعة الشعبية... ورفع سماعة التليفون واتصل به وأوصاه!!

قال أستاذى فى ذكاء نادر: هذا هو الجمل وهذا هو الجمّال، ابحث لى ياسيدى عن الجامعة الشعبية واذهب لصديقك الوزير الجديد الشاعر وأخبره أننا قبلنا ابنه بها.

قلت: إن هناك مشروعا قائما على قدم وساق من أجل بدء الدراسة فى الجامعة العمالية.

قال: قد فوضتك كل سلطاتى وكل أموالى وافعل ما تشاء.

قلت: ولكن سيادتك أقدر.

قال: خذ كل قدراتى وإذا أردت أن تأخذ المنصب كذلك فخذه وحقق له رغبته، وهذا هو الكرسى اجلس عليه الآن وأجر ما شئت من الاتصالات، واكتب ما شئت من الخطابات وأنا أوقعها، ثم تمتم أستاذى: العجيب أن يصدر مثل هذا القول عن نائب ومشرّع ومهندس فماذا تركنا للعوام!

قلت: ولكن ماذا فعل صديقك رئيس مجلس الشعب بعد أن فهم الموضوع؟

قال: ظل يوصينى عليه كلما رآنى.

قلت: أيفعل وهو الجانى؟

قال أستاذى وهو يضحك: فماذا بوسعك أنت أن تفعل وأنت البرىء؟

١٥

فن الحكم على الأمور

كان أستاذى يعتقد أن الجراحة هى فن الحكم على الأمور، وكان يرى أن الإدارة كذلك هى فن الحكم على الأمور، وكان من خلال منظوره هذا قادرا على أن يحدد ما إذا كان الشخص الذى يواجهه جراحا أم غير جراح، وإداريا أم غير جدير بأن يحمل هذا اللقب، ولهذا السبب كان يجيز الاعتماد على كثير من الجراحين غير اللامعين لأنه كان يدرك أنهم قادرون على أن يتجنبوا الخطأ بتجنب الدخول فيما لا يستطيعون الخروج منه، وعلى الخط نفسه فإنه كان يأخذ حذره من تلاميذه الجراحين المندفعين الذين يظنون أنفسهم قادرين على ما ليسوا مؤهلين له، وكان لايفتأ يحذر تلاميذه من أن يسلكوا هذا الطريق، وليس معنى هذا أنه كان ضد فتح آفاق جديدة أو ارتياد التخصصات الدقيقة، لكنه كان مؤمنا بأنه لا يجوز ارتياد هذه الآفاق بدون التعليم العميق، والممارسة الكافية.

بعد هذه المقدمة آتى إلى الحوار الذى دار بينى وبين أستاذى ذات يوم حول جراحة ربط الوريد الأجوف السفلى علاجا لحالة تكرار حدوث «صمات رئوية» واحدة بعد أخرى (الصمات هى مايعرف فى التعبير العامى بالجلطات الرئوية، وهو تعبير خاطئ)، كانت الحالة قد أزعجتنا فى قسم

القلب وفى الرعاية المركزة إلى حد أننا كنا نخشى وفاة المريض فجأة، وكنت لا أزال نائبا صغيرا يقرأ الكتب ويظن أن كل ما فيها قابل للتحقيق أو التنفيذ، ولما وجدت أن علاج هذه الحالة ممكن بهذه الجراحة حادثت أستاذى فيها فقال إنه قرأ عنها لكنه لم يجد أن أحداً قد مارسها من قبل.

قلت: هل لو وجدت أساتذة جراحة الأوعية فى قصر العينى يجرونها هل تجريها؟

قال: بالطبع.

كان أحد هؤلاء الأساتذة سيحضر فى الغد لمناقشة إحدى الرسائل، فتوجهت إليه وسألته عن العلاج الجراحى للحالة التى نحتجزها فى القسم فأجاب بإمكان إجراء الجراحة، سألته عن مخاطرها وتكنيكها ومعدل إجرائها فى قصر العينى وعدت إلى أستاذى فى مساء نفس اليوم الأحد وكانت قائمة عملياته موزعة على يومى الاثنين والأربعاء فوافق على إجرائها فى صباح الأربعاء على أن أحضر (أجهز) المريض تماما، حضرت المريض وأوقفت بعض الأدوية التى لابد من إيقافها... وأجريت العملية بنجاح.

وكان هذا النجاح دافعاً لى لأن أبدأ الحوار مع أستاذى عن التجديد فى الجراحة فإذا هو ينبهنى إلى مجموعة من المبادئ المهمة التى اكتسبها بالخبرة المباشرة، من هذه المبادئ أن فردا واحدا قادر على أن ينشئ تخصصا جديدا فى معهد من المعاهد أو مركز من المراكز، لكنه لا يمكن أن يستمر بهذا المركز وحده لأن طبيعة التخصص لم تعد تسمح بهذا.

كان أستاذى سعيدا بعودة أحد تلاميذه من الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن أتقن جراحة الأوعية وتطبيقاتها فى جراحة اليد، وكان يكرر إن ما صرف على هذا الجراح قد استعيد ما هو أكثر من أضعافه فى أول جراحة أجراها بعد عودته.

سأذكر حوارا ثلاثيا دار فى عيادتى فى نهاية الثمانينيات ولايزال الطرف الثالث وهو صديق عظيم يذكرنى به، كان هذا الطرف أستاذا مساعدا على وشك الترقية للأستاذية فى ذلك الوقت، وقد تقدم لمنحة السلام التى كانت تبيح قبول مَنْ كانوا قد حصلوا على الدكتوراه شريطة ألا يزيد عمرهم على الأربعين، وكذلك كمنحة من منح ما بعد الدكتوراه، وكنت أنا قد حصلت على منحة من هذه المنح لما قبل الدكتوراه، ولم يبق علىّ إلا السفر، وهكذا كنت ألتقى مع زميلى الكبير فى الاستعدادات لهذه المنحة، وكنت أحاول إثناء زميلى الأكبر منى عن أن يذهب فى منحة هى فى معطياتها أقل من مستواه العلمى والمادى، وكان يوافقنى على صحة آرائى حتى لو لم يكن سيأخذ بها، ولكن أستاذنا قال لنا فى ذلك اليوم: إن مثل هذه المنحة قد تكون سببا فى تغيير تخصص أو توجه صاحبها بقية حياته، وهذا ما حدث بالفعل، حيث ركز صاحب المنحة على جراحة الكبد، بل أصبح هو نفسه عميد معهد الكبد بعد أقل من عشر سنوات من هذا الحوار.

■

كان أستاذى صاحب الفضل علىّ فيما يتعلق بفهمى لعظمة المريض المصرى، قال لى ذات مرة إنه استقبل لتوه مريضا طلب أن يجرى له هو بالذات جراحة صعبة، وكان جوهر المثل الذى يضربه أستاذى أن والد هذا المريض بالذات قد توفى عقب إجراء الأستاذ عملية جراحية له منذ أسبوعين فقط.

قلت: ولكن المريض يعلم بالقطع أن فرصة والده كانت ضئيلة ويعلم أنكم بذلتم غاية الجهد.

قال: نعم .. ولكن لا تنس أن دولة مجاورة لنا قد اتبعت أسلوبا حاسما فى محاسبة الأطباء وعقابهم، لكنى مع احترامى لما فيه من الحسم والحزم أخشى أن يقضى على الطب وعلى تقدمه ويجعل كل طبيب معطل الإرادة قبل أن يقدم على أية جراحة.

قلت: ولكن المصريين فى مجموعهم قادرون على تمييز الحق من الباطل.

قال: ياسيدى (وكان هذا تعبيره إذا كان مختلفا مع محادثه بقدر كبير، أو إذا مال للضجر أو الضيق من الموقف أو من الحوار) إن المريض الذى أحدثك عنه فلاح جاء شبه حاف.

قلت: ماذا تقصد بشبه حاف؟!

قال: كان ينتعل حذاء متهالكا ولكن قدميه تنطقان بأنه يمشى حافيا فى معظم الأوقات.

واستأنف الأستاذ حديثه قائلا: وقد باع جزءا من ثروته البسيطة ليجرى العملية التى يعتقد أن فيها شفاءه ولم يعتمد على الخوف من نتيجة العملية ولا على التجربة التى خرج منها لتوه بوفاة والده.

قلت: وماذا تريدنا أن نستنتج من هذا؟

قال: يامحمد إن هذا الفلاح يتصرف من وحى حضارة قديمة عريقة، لأن مثل هذا السلوك لايكتسب فى جيل واحد، لكنه يكتسب عبر الأجيال.

قلت: أليس فى وسع التربية أن تنمى مثل هذا السلوك؟

قال: لا أظن، واستدرك فقال: ربما استطاعت الثقافة مع التربية أن تنمى مثل هذا السلوك، ولكن التربية وحدها لا تستطيع.

لم تكن هذه وجهة نظر أستاذى الوحيدة فيما يتعلق بما يتمتع به الفلاحون، لكنه كان قادرا من حين لآخر على أن يلفت نظرى إلى جوانب إيجابية عديدة من هذه الحضارة المتأصلة فى أهلنا البسطاء مهما طغى عليهم من مظهر فقير أو متداع.

والشاهد أنى أدركت من خلال محاوراتى مع أستاذى فى هذه القضية أبعادا كثيرة وعظيمة لم أكن أدركتها فى شخصية الفلاح المصرى العظيم، وربما كانت معاشرة أستاذى للفلاحين قد هيأت له فرصة أن يعرف ما لم يتح لى أن أعرفه من مثل هذه الحقائق التى علمنيها.

١٦

الأقلية المزعجة

يقودنى القلم إلى الحوارات التى دارت بينى وبين أستاذى حول كثير من النزاعات التى كانت تثور بسبب التنافس على منصب أو التزاحم على ترتيب فيما بين الأساتذة وبعضهم، وفى الحقيقة فقد كان التشريع الجامعى، ولايزال، يتمتع بالغموض فى هذه الجزئية، مما يقود تلقائياً إلى كثير من المشكلات من ناحية، وإلى كثير من التوفيقات الذكية من ناحية أخرى.

وسأذكر إحدى الطرائف فى هذا الصدد: كان أستاذ أحد الأقسام قد أصبح عميدا فنائبا لرئيس الجامعة، ولم يكن فى القسم أستاذ غيره، وهكذا أصبح من حق الأستاذ المساعد أن يرأس القسم، ولكن نائب رئيس الجامعة رأى أن الأستاذ المساعد ليس أهلا لهذه الرئاسة، وأنه مادام موجودا وعاملا فمن الأولى أن يكون هو رئيسا للقسم، وأيد العميد هذه الرؤية لسببين مهمين:

الأول: هو أن شخصية الأستاذ المساعد كانت شخصية رجل مزعج بعض الشىء.

الثانى: أن الأستاذ المساعد صمم على حقه ولجأ إلى القضاء.

أطرف ما فى الموضوع أن الأستاذ المساعد كان قد استوفى بالفعل المدة اللازمة للتقدم لنيل درجة الأستاذية، وكان قد أعد بحوثه بالفعل ولكنه لأسباب رآها منطقية وأسباب أخرى رآها مرتبطة بالكرامة رأى أن يؤجل تقدمه للأستاذية حتى يباشر القضية التى رفعها من أجل حصوله على هذا الحق، وكنت ألح على هذا الأستاذ المساعد فى التقدم للجنة الترقيات لأن تقدمه للترقية وترقيه يحل المشكلة حلا مرضيا لجميع الأطراف، ولكنه كان يحنو علىّ ويقول: يامحمد يابنى أنت مازلت صغيرا وأنا أقدر شعورك ونصحك، ولكننى لن أتنازل عن نيل حقى بالقضاء.

على كل الأحوال كسب الأستاذ المساعد القضية وأصبح لزاما على الجامعة أن تمكنه من رئاسة القسم، ولم تتأخر الجامعة فى هذا الإجراء، وما هى إلا فترة قصيرة لم تتعد الشهرين حتى حصل على الأستاذية وانتهت هذه المشكلة إلى الأبد، بل إن منصب الوكيل سرعان ما خلا، ولم يكن فى الكلية من الأساتذة غير هذا الأستاذ فجمع الوكالة ورئاسة القسم.

ومع هذا لم يكن الأمر يخلو من نزاعات بينه وبين نائب رئيس الجامعة، وكان نائب رئيس الجامعة رجلا رياضيا دمث الخلق، هادئ الطبع، لايحب اللدد فى الخصومة، لكن الأستاذ الآخر كان يحب إظهار قوته وشخصيته كلما كانت هناك فرصة، وكان يرى هذا من واجبه لا من حقه فحسب، ولم يكن هذا ليضيف إليه شيئا، بل ربما كان ينتقص من صورته العامة فى المحيط الجامعى.. وفى مرة من المرات خطر لى أن أحدثه فى أن الأولى به وقد وصل إلى كل ما وصل إليه أن يكون متسامحا، لينا، بادئا بالمجاملة.. ووصل حديثى معه إلى نقطة قلت له فيها: مهما كان رأيك فى نائب رئيس الجامعة فإنك لا تستطيع أن تنكر دماثة خلقه، وهدوء طبعه.

قال: نعم.. ولكنى أدلك على السبب فى هذا.

قلت: وما هو هذا السبب؟

قال: إنه يتعاطى بعض الكحوليات.. صعقت وضحكت لهذا التسبيب

الذى لا يجوز إطلاقه هكذا، ولا يستحسن أن يلقى على مسامع طبيب من أمثالى لا يمكن إقناعه بمثل هذا التسبيب بهذا القدر من التعميم والتسطيح!! ولم أعلق بكلمة واحدة، وانتهى الحوار عند هذا الحد.

وفى أقرب فرصة رويت لأستاذى ملخص هذا الحوار فإذا به بعد أن أطرق برأسه هنيهة يقول: ما رأيك يامحمد أن تنقل لصديقك الأستاذ على لسانى أنى على استعداد لتمويل نفقات تعاطيه الكحول من جيبى الخاص إذا كان هذا كفيلا بأن يهدئ أعصابه وأن يجعل منه شخصية قريبة فى سلوكها من نائب رئيس الجامعة!

وأردف أستاذى يقول: إنى أتحدث جاداً، وإنى على استعداد لهذا مهما كانت التكاليف، لأنى من ناحية أكسب لهذا الوطن أستاذا ممتازا ينقصه هدوء الأعصاب، ومن ناحية أخرى أكسب وقتى الذى يضيع من آن لآخر فى تهدئته ومراضاته.

وأعترف أننى أنا الذى عجزت عن أن أنفذ هذا الاقتراح، ذلك أنى لم أتصور نفسى ناقلا لمثل هذا العرض للأستاذ.

■

سألت أستاذى ذات يوم عن أحب تلاميذه فى القسم الذى أسسه، فإذا هو يذكر أكثر من عشرة ويكاد يستزيد، قلت: لا أمل إذن فى تحديد واحد بعينه، وإذاً نقلب السؤال لنسأل عن أقلهم محبة، قال: ليس هناك من هو أقل محبة من الآخر، ولكنى أعترف لك بصراحة بأن هناك اثنين من هؤلاء التلاميذ إذا رأيتهما فى القسم عند دخولى فإنى أصاب بانحراف المزاج طوال اليوم، وحدد لى اسميهما.

كان الأول هو النموذج العصرى للأفاق، وإذا صح أن عصرنا قد شهد انتعاش ظاهرة الأفاقين فبوسع القارئ أن يتخيل صورة زميلنا هذا وكأنه عميد الأفاقين، ولكن لا بأس من تصويره على النحو الذى يصوره به عمال

القسم وعاملاته، فهؤلاء قد لاحظوا أنه إذا أراد إقناع أحد الأساتذة بولائه أخذ نفسه بأحد ملامح سلوك الأستاذ، ففى زمن من الأزمان دخن البايب من أجل التقرب من الأستاذ الوحيد الذى كان يدخن البايب، وفى زمان تال أطلق الجزء السفلى من لحيته على نحو ما فعل أحد الأساتذة، وفى زمن ثالث لبس نظارة كارتيه ذات سلاسل ذهبية وكلبسات سوداء على نحو ما فعل أستاذه أو هدفه الثالث، وفى زمن رابع قبل على نفسه العمل فى مهمة تتعلق بالامتحانات لايقوم بها إلا صغار الإداريين من أجل أن يكون قريبا من رئيس القسم الذى كان يرأس لجنة الامتحانات، وكان هذا العمل يقتضى تغييرا تاما فى مظهره.. بالطبع كان أستاذنا الكبير يتابع كل هذا وأكثر منه (ضمن ما يتابع من أداء الزميل وسيئاته) حتى أصابه الضيق النفسى من هذا الشخص ومن وجوده.

أما الثانى فكان نموذجا مكبرا للزوجة الدائمة، فهو يقضى ثلاث دقائق كل صباح فى تحية كل من يقابله ممن هم فوقه، وهو يسأل عن أحوالهم وصحتهم وأولادهم وسكنهم وسياراتهم وعياداتهم فى كل صباح وهو يبتسم نصف ابتسامة بعد كل إجابة، وهو لايكف عن تكرار هذا النمط الممل من التحية ومن التعبير عن الحب، وهو يبدى استعداده لأداء كافة الخدمات ما ظهر منها وما بطن، بل إنه يظهر أسفه وحزنه لأنك لم تكلفه بخدمة يؤديها. وكنت أحيانا أفكر إنه إذا كان يفعل هذا معى ولست من أساتذة قسمه والفارق بينى وبينه ليس كبيرا جدا، فما باله يفعل مع أستاذنا الكبير؟

إلى أن جاءتنى الإجابة ضمن حديث أستاذى الخاطف عن تلميذيه اللذين يجعلانه يصاب بانحراف المزاج طوال اليوم إذا ما رآهما فى الصباح.

١٧

أصعب ما يؤذى الظالم

ذهبت ذات يوم إلى أستاذى غاضبا مغاضبا منتويا الاستقالة من وظيفتى، تشاغل عنى أستاذى وتغافل ثم بدأ يقص علىَّ قصته مع أستاذه ومع الرجل الثانى فى القسم الذى كان هو نائبا (طبيبا مقيما) فيه، قال: إنه ذهب إلى الأستاذ فى عيادته وفى جيبه الاستقالة وقد قر قراره على ألا يستمر فى ذلك القسم على أية صورة من الصور، وإذا به يقابل فى مدخل العمارة التى كانت فيها عيادة أستاذه زميله الأسبق منه بعام واحد نائب جراحة المسالك البولية، وهو أستاذ جراحة المسالك الأشهر الآن، فلما رآه مكفهرا سأله وأخبره، قال: معك حق فى كل ما تشكو منه، ولكنى بروح الأخوة أرجوك ألا تصل بالأمور إلى الاستقالة، قال: ولكن فكرى قد استقر عليها، قال: أعرف ولكنى أرجوك... و ثق أن أستاذك سينتصر لك من المدرس المتسلط الذى نعرف جميعا تسلطه وشراسة طبعه، ولا تنس يامحمد أن اثنين قبلك من دفعتنا والدفعة السابقة تركا هذه الوظيفة إلى وظائف أخرى بسبب ظروف مثل ظروفك هذه.

دخل أستاذى على أستاذه فوجده هاشا باشا دمث الخلق، هادئ الطبع كالعهد به، وإذا به يستمع إليه حتى انتهى من شكواه ورأيه ثم إذا هو يقول

له: لا تنس أن هذا المدرس يحمل عنى عبء مسئوليات القسم وما أكثرها، ولا تنس أنه كفء وماهر، وقد وصل إلى مرحلة الاكتمال فى علمه وخبرته، لهذا فإنى لن أنصرك عليه لأنى أستطيع أن أعوضك بنائب آخر من زملائك أو من الدفعة التالية، ولكنى لا أستطيع تعويضه بالقدر ذاته من السهولة، أنا أعرف أنك مجتهد ومجد ومتفوق وأمين ومخلص، ولكنى من موقع مسئوليتى عن القسم لا أستطيع عقلا ولا موضوعا أن أنتصر لك، تستطيع أن تطمئن إلى تقديرى لك، ولكن لا تعتمد على هذا التقدير فى مجابهة المدرس، وعليك أن تستغل ذكاءك فى إرضائه وإقناعه بأدائك، وعندئذ سأكون أسعد الناس بكما وبعلاقتكما المتوطدة.

خرج أستاذى من عيادة أستاذه ليصبح صديقا للأبد للمدرس الذى ذهب يشكوه، وظل الرجلان يحترمان بعضهما ويجلان بعضهما طيلة عمرهما الممتد، وكانت علاقتهما مضرب الأمثال بين أبناء تخصصهما على الرغم من أن أستاذى قد تفوق فى كثير من مناحى الحياة على المدرس الذى كان فى حكم الأستاذ الأكبر لأجيال كثيرة، ومن عجائب القدر أنهما تزوجها فى وقتين متقاربين وتوفيا عليهما رحمة الله فى وقتين متقاربين.

انتهى الأستاذ من قصته الممتعة فإذا بى أقول فى عناد: إنك تعرف أن الموقف فى حالتى مختلف تماما عن هذه القصة.

قال: وهل لابد من أن يكون الموقف مطابقا تماما حتى تقتنع؟.

قلت: لو كنت من زميلك أو من أستاذك لنصحتك بأكثر مما نصحاك به، ولكن حالتى مختلفة.

قال: فإذا كنت ياسيدى قادرا على النصح هكذا ... وأظنك قادرا فانصح نفسك.

قلت: ولكن الأمر وصل إلى صميم الأخلاق فالناس تكذب من أجل الكذب، وتزور من أجل التزوير، وليس هناك مبرر ولا دافع لهم ليتخذوا ما اتخذوا من مواقف.

قال: لاشك أن هناك دوافع ولكنك تجهلها.

قلت: فما تظنها تكون؟

قال: ما المسئول بأعلم من السائل، أأنت الذى فى قلب المشكلة لا تعرف، وأعرف أنا؟

قلت: فماذا أفعل؟

قال: انتظر حتى تعرف الحقيقة.

قلت: فإذا لم أعرفها؟

قال: فانتظر.

قلت: حتى المشيب.

قال: هذا يكون من حسن حظك.

قلت: أوتعتقد؟

قال: نعم إن المعرفة تصيبنا بالتوقف ولكن البحث عنها يجعلنا نبحث على الدوام.

قلت: أيستحق الأمر مثل هذا الاهتمام؟

قال: ما بالك إذا لم تكن أنت من دارسى النفس البشرية؟

قلت: هذه نفوس شيطانية وليست إنسانية.

قال: ولكنها نفوس بشر.

قلت: قد فاقوا الشيطان.

قال: هذه وجهة نظرك.

قلت: بل وجهة نظرهم هم أيضا فى أنفسهم.

قال: اتفقنا

قلت: علام؟

قال: على أن المسألة تحتاج مزيدا من الدرس منك.

صمت، وانتابنى الاكتئاب بينما أستاذى حزين من أجلى، لكنه يتظاهر بالانشغال بالعمل، ثم إذا به يرفع رأسه ويقول: يامحمد لقد عودت نفسى الا أغضبها من أجل مَنْ هم أقل منى.

قلت: ولكن هؤلاء ليسوا أقل منى.

قال: ومن أدراك؟

قلت: مناصبهم وسنهم.

قال: أهكذا تحكم على الأمور؟.. ما كنت أظن أن ثقتك فى قدراتك تتضاءل إلى هذا الحد.

قلت: المسألة ليست مسألة ثقة فى النفس، لكنها حديث عن تأهل وتأهيل وموقع.

قال: فإذا سألتك أن تنصح نفسك بالصبر فبم تعلل نصحك؟

قلت: حتى أصبح ندا لهم فى تأهيلهم العلمى.

قال: إذاً اتفقنا للمرة الثانية على أن تصبر حتى ذلك الحين.

قلت: ولكن نفسى ضائقة.

قال: فاقرأ.

قلت: لا أجد فى نفسى رغبة.

قال: فارتحل.

قلت: لا أجد فى جسدى قدرة.

قال: فاكتب.

قلت: اعتذرت عن الأسهل فتكلفنى بالأصعب.

قال: فدع نفسك لى وراجع لى هذا النص.

قلت: ولكنى نسيت الجراحة، قال: عليك أن تتذكرها.

قلت: فأولى بهذا التذكر تخصصى.

قال: اتفقنا للمرة الثالثة.

فى صباح اليوم التالى وجدنى منشرح الصدر فقال: بعد سنوات ستتذكر ما حدث بالأمس، فتضحك وتتمنى عودة تلك الأيام.

قلت: ولكنى لا أتمنى عودتها فى الوقت الراهن،.

قال: لن تعود.

قلت: لماذا؟

قال: لأنك ضحكت قبل أن تمضى ساعات على تكديرك، هل تعلم أن أكبر ما يؤذى الظالم ألا يرى المظلوم يتأوه،

قلت: فإن رآه متأوها؟!

قال: فإنه يسعد ويزداد ظلما.

١٨

المهنة والوظيفة

من حين لآخر كانت تأتينى بعض الفرص لمنح علمية فى الخارج ولوظائف متميزة فى كوادر مختلفة، أذكر لتقريب الصورة بالتفصيل مثلا واحدا فقط وهو أنه عقب تخرجى مباشرة كانت هناك فرصة ذهبية لمنحة للحصول على الدكتوراه فى هندسة البيئة فى حدود ثلاث سنوات والعودة مدرسا لهندسة البيئة فى كلية الهندسة، وربما لأكون فى مقام رئيس القسم مباشرة، وقد جاءنى الترشيح لهذه المنحة بحكم اهتماماتى المبكرة بالبيئة والثقافة البيئية.. وهكذا، وكان أمر المنحة شبه محسوم لى تماماً.

وفى كل مرة كنت أذهب إلى أستاذى لاستشارته فإذا به لايلقى بالا إلى ما أحكى، وكأن الأمر لا يستحق السماع، فى إحدى المرات قال: إنى أوافقك على قرارك.

قلت: وما هو؟

قال: الرفض.

قلت: ولكنى لم أبد رأيى بعد.

قال: لست فى حاجة إلى تصريح منك بالرفض إنك فى كل المرات تنهى إلىّ الخبر متصورا أنك ترويه بطريقة محايدة، ولكن نبرة الرفض واضحة فيما ترويه وتتحدث به.

قلت: يبدو ذلك.

قال: سأقص عليك قصتى مع أستاذى... بعد انتهاء فترة النيابة فى قصر العينى رشحنا كما هى العادة لوظائف فى وزارة الصحة، كانت وظيفتى على حدود السودان، وفى الوقت نفسه قبلت أوراقى كمعيد (أى مدرس مساعد حسب نظام ذلك الوقت) للجراحة فى جامعة أسيوط، وجاءتنى من ناحية ثالثة منحة وزارة الصحة للحصول على درجة عليا فى جراحة القلب تمهيدا للعمل كجراح فى معهد القلب بإمبابة، وأنت تعرف أن وظيفة وزارة الصحة هى أدنى هذه الوظائف، وهكذا فقد كنت بين خيارين، بين وظيفة الجامعة وبين منحة بريطانيا، ذهبت لأستاذى فقال لى بلا تردد: الوظيفة أفضل من الشهادة، وشرح لى أننى سأحصل على الشهادات إن عاجلا أو آجلا، ولكن وظيفة الجامعة فى حد ذاتها أفضل من أى وظيفة أخرى.

قلت: ألهذا السبب لا تزال تحب أستاذك؟

قال: هذا من أبرز الأسباب.

قلت: ولكنك كنت كفيلا بإحداث طفرة فى جراحة القلب فى مصر.

قال: ومَنْ أدراك؟ أننى نفسى لا أعتقد هذا الاعتقاد، إنه عمل فريق ولم تكن ظروف مصر فى ذلك الوقت واعدة ولا سهلة كما هى الآن.

قلت: ألم تندم؟

قال: ولا لحظة واحدة.

قلت: كيف؟

قال: إنى لا أشغل نفسى بما لم يكتب لى.

قلت: هذا من فضل الله، أتظن أن كل إنسان يستطيع هذا؟

قال بعد صمت طويل: لا أظن، ولكن هذا ما خبرته فى نفسى، وهذا فضل من نعمة الله علىّ.

ذكرنى هذا بحوار آخر قال لى فيه أستاذى إنه لايشغل باله بمنصب أو وظيفة انتهى من أدائها، فهو لا يذكر شيئا عن الفترة التى عمل فيها نائبا لرئيس الجامعة، وحين كان نائبا لم يكن يذكر شيئا عن الفترة التى قضاها عميدا.. وهكذا.

الحكيم الجراح

١٩

خطر المصاهرات

دار الخيال

فى بعض الأحيان كان أستاذى يجود علىّ برأيه فىّ متبلوراً فى بعض الصفات المتميزة، وكان كثيراً ما يشير إلى أنه سبق له أن وصفنى بهذه الصفة، أو أنه لايزال على عقيدته، ومن الأوصاف التى كنت أعتز بها، بل كنت أطمح إلى الاطمئنان على بقائها ملازمة لأدائى، تلك الصفة التى كان أستاذى قد بلورها فى قوله إننى أتمتع بذكاء عقلى وصفاء نفسى، وقلما تجتمع هاتان الصفتان فى شخص واحد.

وكان هذا العطف من جانبه يشجعنى بل يجرئنى على أن أوجه إليه بعض الأسئلة التى تصنف على أنها أسئلة محرجة، وهى أسئلة يستنكف السائلون أن يوجهوها إلا أن تتاح لهم لحظات الصفاء مع محدثيهم.. كما أنها، أى الأسئلة ، كثيرا ما تحظى بالاعتذار عن عدم الإجابة عنها.

وفى مقابل هذا كان أستاذى يفتح لى صدره ويتبسط فى سؤالى عن بعض أحوالى الخاصة، ويسألنى أسئلة لا يسألها إلا الأصدقاء المقربون.

وفى إحدى لحظات الصفاء سألنى أستاذى عن مقال كنت قد كتبته عن المصاهرات السياسية، ومن العجيب أن أستاذى قرأ هذا المقال ضمن

مجموعة من مقالاتى كنت قد أعددتها للنشر، ورآها أستاذى على مكتبى فى إحدى المرات التى شرفنى فيها بزيارتى، وقد شده عنوان أول هذه المقالات فأخذ المقالات كلها ليكون أول مَنْ يقرؤها على حد تعبيره، ومن غرائب القدر أن هذا المقال لم ينشر إلا بعد وفاة أستاذى، وقد نشر بصيغة مختلفة (من حيث الشكل والأشخاص) عما أعرضه به هنا، وعما كنت قد كتبته حين طالعه أستاذى، وقد فاجأنى أستاذى فى اليوم التالى بقوله: إن هذا المقال فيما يبدو جزء من سيرة ذاتية تكتبها، ثم فاجأنى بسرعة بقوله: إنه يرى نفسه فى بعض أجزاء المقال، وسألنى مع إعطائى الحق فى عدم الإجابة عما إذا كانت استنتاجاته صحيحة.

قلت لأستاذى: إن الضمائر فى مقالى لا تسمح بالتفسيرات التى يتبناها.

قال: دعك من الضمائر وأجبنى عن الجواهر.

قلت: لا يستقيم الأمر.

قال: يكفينى هذا الاعتراف.

قلت: لم يكتمل.

قال: بل اكتمل.

قلت: كيف كان كذلك؟

قال: هل نسيت أن الحياء بعض الأدب، كما أنه بعض الإيمان.

قلت: وأين حظى من هذا وذاك؟

قال: بل إن حظوظك من الثلاثة قد فاقت الوصف، إيمانا وحياء وأدبا.

قلت: تفضل من سيادتكم وثقة.

قال: بل إقرار واعتماد.

قلت: لا أستحق هذا ولا ذاك.

قال: دعك من هذا وأعد علىّ محتوى مقالك بعد أن تضبط الضمائر التى موهت بها على القارئ.

قلت: فإن لم يسمح لى الحياء بهذا.

قال: أنا الحياء وقد سمحت لك.

قلت: لقد رويت فى مدخل الموضوع أو المقال أن أحد أصدقائى سألنى: لماذا لم تتزوج ابنة أحد من أساتذتك؟ وأردف يقول إنه يعرف أن كلهم يحبونك حبا شديدا.

ولشد ما كانت دهشة صديقى أن أجبته أن عندى إجابة جاهزة لهذا السؤال الذى وجه إلىّ كثيرا، وهى أنى لم أفعل هذا حرصا على حب أساتذتى، فإن زواجى من ابنة أستاذ بعينه يجلب علىّ كراهية الآخرين تلقائيا، أو على الأقل عدم راحتهم. كما أن توتر العلاقة بينى وبين زوجى، وهو أمر وارد بنسبة كبيرة، سيقود بالتبعية إلى تقليل قدر محبة ومعزة الأستاذ الذى اخترت أن يكون صهرى.

قال أستاذى: أفلم ينتبه صديقك إلى أن يسأل: ألم يكن ممكناً أن تكون بمثابة الاستثناء الذى ينعم براحة البال وحسن العلاقة على طول الخط.

قلت: حدث هذا وقد أجبت بأن هذا الاستثناء لم يحدث.

قال أستاذى وهو يبدى بعض العجب: لا فى التاريخ القديم ولا الحديث.

قلت: لو تأملنا الأمور بعقلية علمية أو بعقلية عملية لوجدنا أن مثل هذه العلاقات جلبت من الخسائر ما كان ممكنا تجنبه.

واستطردت: هل تعتقد أن العلاقات بين مصر وإيران قابلة للإصلاح طالما ظل طيف طلاق الإمبراطور الإيرانى من الإمبراطورة المصرية قائما؟!

قال أستاذى: لكن هذا حدث منذ نصف قرن وانتهى، والإمبراطور نفسه توفى!!

قلت: ربما إنه انتهى لكن ظلاله لا تزال باقية، أما ثماره وهى الأميرة الابنة التى تنتمى لمصر وإيران فلا أحد يعرف عنها كثيرا ولا قليلا، بينما الإمبراطورة لاتزال تعيش فى هدوء وسكينة فى مدينة الإسكندرية بعيدا عن صخب القاهرة وطهران وباريس التى تفضلها أسرة الشاه.

قال: أحقاً ؟

قلت: نعم.

قال أستاذى: ما أعجب الزمن.

وسرح أستاذى بعض الوقت ثم أخذ يقص ذكرياته عن الإمبراطورة التى كانت بمثابة قمة الجمال فى خيال جيله فى الأربعينيات.

ثم قال أستاذى: هل تنكر أن كثيرا من الأساتذة لم يصبحوا أساتذة إلا لأنهم تزوجوا بنات الأساتذة.

قلت: أنا أعرف أننا، سواء فى ذلك أبناء جيلك وأبناء جيلى، يعتقدون فى هذا إلى أقصى حد، لكنى أؤمن أن هؤلاء خسروا كثيرا ولم يكسبوا إلا القليل الذى كان ممكنا بدون رباط الزوجية؟

قال: كيف كان ذلك؟

قلت: لاشك أن سيادتكم تعلمون أن أعلى شهادات الطب ليست الدكتوراه ولا الزمالة ولا البورد، وإنما هى شهادة الـ«جى بى».

قال وهو مندهش أو وهو متعجب: ما هذه؟

قلت: إنها اختصار «جوز بنت الأستاذ».

ضحك أستاذى، وسأل نفسه: لماذا لم يصله خبر هذه الشهادة أو هذا الاختصار؟

واستطردت أقول: إنه على الرغم من أن هذه المقولة تعبر عن حقيقة فإنها تعبر أيضاً عن عقيدة من المعتقدات الفاسدة التى أوذى بها أزواج البنات كما أوذى بها آباء البنات.

قال أستاذى: هل عندك من دليل؟

قلت: عندى أمثلة تملأ الصفائح والصفحات.. هل تدرى مَنْ الذى أساء إلى صورة المؤرخ الكبير سليم حسن أبلغ الإساءات؟ إنه تلميذه الذى كان زوجا لابنته، فلما حدث الخلاف بذل كل جهده للإساءة إلى صورة حميه العالم الأثرى الكبير.

التفت أستاذى إلىّ وقال: وفيما أذكر فإنك قد قصصت علىّ هذه القصة عندما نشرت موسوعته الكبرى فى طبعة حديثة.

وبعد هنيهة قال: لكنك لا تستطيع أن تنكر أن السياسة تدفع بأزواج البنات إلى مواقع الوزارة ورئاسة الوزارة.

قلت: عندى لك مثالان يؤيدان نظرتى وينفيان عقائد الناس ويدلان على أن المسألة تحصيل حاصل، والمثالان هما سعد زغلول باشا وحسين سرى باشا، وهما الوحيدان فى عصر الملكية أو ما قبل الثورة اللذان كانا رئيسى وزراء، وكانا أيضاً زوجين لابنتى رئيسين للوزراء، فالأول هو زوج ابنة مصطفى فهمى باشا، والثانى هو زوج ابنة محمد سعيد باشا.

قال أستاذى: كيف تستطيع أن تقنعنى بأن هذين المثالين بالذات كانا دليلا على نكبة أصحابهم بالنسب؟! يبدو لى أن العكس هو الصواب!!.

قلت: كان حسين سرى مؤهلا لأن يكون فى وضع أفضل من وضعه بكثير، وهو الذى تولى رئاسة الوزارة فى ١٩٤١ بالمصادفة، ثم فى ١٩٤٩

بالاضطرار، ثم فى ١٩٥٢ بالإلحاح، بينما هربت منه هذه الرئاسة فى أوقات أفضل من هذا بسبب أنه كان زوج خالة الملكة التى وقع الخلاف بينها وبين الملك وانعكس هذا على علاقة حسين سرى بالملك فاروق، وأثر هذا بالسلب على ما كان حسين سرى يتمتع به من صداقة الإنجليز، وما كان يحظى به من حسن العلاقة مع الطوائف السياسية المتناحرة، ولا تنس أنه كان وزيرا ابن وزير.

قال أستاذى: أذكر حديثك الطويل عنه وأنك حدثتنى بهذا كله حين كنا نتحدث عن فريته على الوفد حين افترى القصة التى استلذت الثورة بتكرارها من أن النحاس طلب من الملك أن يقبل يده، بعدما فاز الوفد بالأغلبية الساحقة وشكل الوزارة فى مطلع ١٩٥٠.

لكن أستاذى سرعان ما استعاد زمام المناقشة فى يده وقال: فبماذا أوذى سعد زغلول وهو الذى لم يصبح وزيرا إلا فى الوزارة التى كان صهره رئيسها؟

قلت: كان سعد بكفايته وشخصيته سيصل إلى الوزارة،سواء أكان صهره رئيسها أم لم يكن، ولا تنس أن صهره كان رئيسا للوزراء قبل أن يدخلها سعد بثلاثة عشر عاما، وقد حجب غيره من الوصول إلى رئاسة الوزارة، ثم إنه حجب سعدا نفسه من الوصول إلى رئاسة الوزارة، فقد كان سعد أقوى الوزراء فى وزارة صهره، وكان هو المرشح الطبيعى ليكون رئيسا للوزراء خلفا له فى ١٩٠٨، لكن علاقة النسب هذه جعلت الخديو عباس يفضل الاستعانة ببطرس غالى ثم بغيره من بعده، ولم يصبح سعد رئيسا للوزارة إلا بعد ١٦ عاما بعد أن أصبح زعيما للأمة.

قال: فبماذا تفسر صعود محمد هاشم زوج ابنة حسين سرى حتى وصل الأمر بمصطفى أمين أن يشبهه فى مقال شهير بالكونت شيانو زوج ابنة موسولينى؟

قلت: لقد ظلم محمد هاشم، ولو أنه لم يصل إلى الوزارة فى عهد الملك لكان وزيرا ناجحا ولفترة أطول فى عهد الثورة، وربما وصل إلى رئاسة الوزارة فى عهدها، وقد حدث هذا مع أكثر من واحد من معاصريه.

قال أستاذى: لكن الزيجات كثيرا ما تضيف إلى العلاقات الإنسانية وبخاصة بين الدول.

قلت: لا أظن.. هل تذكر اللورد كيلرن أو السير مايلز لامبسون، لقد كان متزوجا من إيطالية وكان (فى أثناء تصاعد الخطر الألمانى على بريطانيا فى أثناء الحرب العالمية الثانية) إذا طلب من الملك فاروق أن يخرج الإيطاليين من القصر الملكى تحسباً من تجسسهم وتعاونهم مع دول المحور رد عليه الملك فاروق (بطرق دبلوماسية) بأن عليه أن يخرج الإيطاليين من دار المعتمد البريطانى أولا!! وكأن الملك كان يشترط عليه أن يطلق أو يطرد زوجته لأنها إيطالية.

قال: لكنى أذكر أنه شاع بيننا أن القادة البريطانيين فى لندن لم يطلبوا هذا الطلب من سفيرهم فى مصر، وإنما كان هو الذى يتعسف فى إظهار سلطته، مما جعل الملك فاروق بمشورة أصحاب الدسائس، يلجأ إلى استخدام أسلوب كأسلوب هذه المفارقة التى لا أظن أن أحداً يحسب حسابها إلا فى مجتمع عربى ديمقراطى.

قلت: وما يدرينا.. إنى أعتقد الآن أن هذه الزيجة قد أخرت مستقبل صاحبها السياسى وهو الذى كان مؤهلا فى التاريخ البريطانى لأفضل مما وصل إليه.

قال أستاذى: لا أعرف فى التاريخ البريطانى حتى أناقشك.

قلت: أظنك تستطيع بسهولة أن تقارن بين أداء إيدن الذى كان وزيراً للخارجية، وأداء هذا المعتمد البريطانى.

قال أستاذى: حقاً يا محمد، لقد كان هذا المعتمد البريطانى لامبسون أقوى بكثير من وزير الخارجية الذى عمّر فى منصبه طويلاً.

قلت: هل تتصور أنه هو الذى كان فى وداع فاروق حين عاد فجأة من بريطانيا ليتولى العرش ١٩٣٦؟

قال أستاذى: لا أعرف هذه.. لكننى أعرف أنه عاش حتى ١٩٥٦ حين وصفه عبد الناصر بما وصفه به من أنه خرع؟

قلت: لقد كان وجها طويل العمر فى السياسة البريطانية لم ينته دوره إلا على يد الأمريكيين الذين تآمروا على بريطانيا وعليه بالتبعية، وصوروا المسألة على أن بريطانيا هى التى لعبت من وراء ظهر أمريكا.

قال: إنى اذكر اسمه يتردد كثيرًا فى السياسة البريطانية لكنى لا أعرف عنه شيئًا.

قلت: هل لك فى وصف العقاد.

قال: أبلغت عظمة العقاد انه وصف السياسة البريطانية على طريقته.

قلت: بلى.

قال: اسمعنى.

قلت: قال الأستاذ العقاد وهو يقارن بينه وبين زعمائنا الذين كان يهاجمهم: إن نظيرهم البريطانى إيدن «يعرف الجندية ويعرف الحياة الفكرية، ويؤلف رسالة عن المصور «سيزان» ورحلة عن «أماكن تحت الشمس» حين سافر إلى القارة الأسترالية، ويتعلم اللغة الفارسية واللغة العربية ليستوفى حظه من أدب اللغتين غير مترجم إلى لغة أخرى، ويلتقى هو ورئيس وزراء فرنسا «ليون بلوم» فلا ينقضيان من بحث المسألة السياسية حتى يستغرق كلاهما فى بحث أسلوب «بروست» والمقارنة بينه وبين سائر الأساليب!

هذا هو الفرق بين الوزراء والزعماء.

وهذا بعينه هو الفرق بين الحواشى والاتباع..».

قال أستاذى: ما أعجب تاريخنا، وما أعجب دور الأدب فيه.. ماذا كان الأستاذ العقاد يفعل لو عاش أيامنا هذه إذا كان رأيه فى ذلك الماضى الجميل على هذا النحو القاسى!! لنا الله على كل حال يا محمد.

قلت: لكن إيدن هذا تحول على يد «صديقك» إلى مجرد زوج لإحدى قريبات تشرشل صغيرات السن!!

قال: لا تفجعنى فى أصدقائى.. ودع عنك استنتاجاتهم قصيرة النظر.

قلت: لكنك لو عرفت مَنْ أعنيه ما قلت هذا.

قال: بل أعرف هذا الصحفى الكبير (!!) من نبرة أول حرف فى صوتك حين تتحدث عنه.. وقد اتفقنا على أن نتجاوزه فى مناقشاتنا.

قلت: يبدو أنى عاجز عن الوفاء بالاتفاق.

قال: لا تقلق.. سأقوم لك بالدورين معاً.. أتجاهل سيرته، وأدعوك إلى تجاهلها.

قلت: لكان ماذا نفعل فى الوعى الذى زيفه؟

قال: لم يكن هو وحده الذى زيف الوعى، وليس الوعى وحده هو الذى زيف.. لقد كان الوعى عندما زيف أفضل حظاً من التاريخ !! وأفضل حظا من الحقيقة.

ثم سكت أستاذى هنيهة سرح فيها وكله ألم لما حدث لأمته وجيله، وحاول أن يستعيد السياق حتى يهرب من ألم ذكرى الهزيمة، وذكرى الأيام السوداء التى عاشها فى تلك الحرب التى كان مجندا فيها.. وحاول بكل طاقته النفسية الخروج من هذه الذكرى الكئيبة لكنه لم ينجح إلا بعد دقائق طالت

كأنها دهر.. وقد رأى أن يسرى عن نفسه بأن يعود إلى موضوع المناقشة.. وقال: وهل كان الرجل البريطانى الضخم الطويل الفارع، أقصد المندوب السامى متزوجاً حقاً من إيطالية؟

قلت: نعم.

قال: ولعل هذا أمر مشهور.

قلت: لأن المسألة طبيعية، فالأمر غير مستور وإن لم يكن مشهورًا.

قال: طبيعية؟!

قلت: نعم القانون يسمح بذلك.

قال: وأعتقد أن قانوننا يسمح بهذا أيضاً لأنه أمر طبيعى.

قلت: فى الواقع إنه لا يسمح!! ولعلك لا تشاركنى الرأى فى حكمة القانون الدبلوماسى المصرى، الذى لا يقبل أن يكون الدبلوماسي المصرى متزوجا من أجنبية.

قال: هذه هى المرة الأولى التى أعرف فيها بهذا القانون.

قلت: ألا تعرف أن أستاذنا يحيى حقى نفسه ترك السلك الدبلوماسى لهذا السبب، ولم يكن هو وحده، وإنما كان هناك آخرون كانوا أشهر منه وقتها لكن صاحب القنديل صار الآن أكثرهم شهرة مع أنه لم يكن وصل إلى درجة السفير.

قال أستاذى: لكن بعض الوزراء الآن متزوجون من أجنبيات.

قلت: الآن.. وقبل الآن، لا تنس أن القانون المصرى يميز الوزراء على المحافظين والسفراء وغيرهم فيجعل للوزير حق عضوية البرلمان: انتخابا أو تعيينا، لكن المحافظ يستقيل من البرلمان حتى لو كان عضواً منتخباً إذا ما تم اختياره لهذا المنصب، وينطبق هذا الأمر على السفراء أيضاً!! كذلك

يفعل بإباحة زواج الوزراء من الأجنبيات ويمنع هذا على السفراء!!

قال أستاذى: هل تظن أن علاقاتنا بدول زوجات الوزراء يمكن أن تفيد من مثل هذه المصاهرات؟ ودعنى أسألك على سبيل المثال: ماذا تفيد وزارة المالية المصرية مثلاً من زواج وزيرها من أجنبية؟ وقد حدث هذا أكثر من مرة؟ بل قل لى: ماذا أفادت أية دولة من أية زوجة أجنبية من قبل؟

قلت: الأمر ليس قاعدة سلبا أو إيجابا.

قال: إذا كان الأمر كذلك فهل لك أن تحدثنى عن فضل زوجة محمد محمود خليل الفرنسية الذى يحتفظ متحفهما باسمهما معا؟

قلت: لا أظن لها فضلاً، إنما المال مال الرجل، والمتحف يحمل اسمها عنوة واقتدارا.

قال: ألم يكن لها فضل فى اختيار اللوحات والعناية بها؟

قلت: يبدو لى أنه لم يكن لها أى فضل، ولو كان لها فضل لظهر مبكرا، بل دعنى أقول لك: إنه لو كان لها مجرد اقتناع بما فعل لسمت المتحف باسمها قبل اسم زوجها. فالفرنسيات حريصات على نسبة فضل أزواجهن إليهن.. وما من فرنسية تزوجت مصريا إلا اشتهر أمر زواجها وكأنه إضافة إلى الزوج أو مكسب له على أقل تقدير.. وأنت تذكر بالطبع عشرات من المصريين الذين تزوجوا فرنسيات وحظين بما لم تحظ به الزوجات المصريات فى بلادهن.

قال: هذا عن الاستيراد، فماذا عن التصدير؟ وعذراً لاستخدامى لهذه الألفاظ التجارية، لكن ألا ترى أن الزوجات المصريات ينجحن فى الزواج خارج مصر ويقدمن نماذج مشرفة للسيدة الأولى إذا تزوجن الحكام الأجانب؟

قلت: لعلك تقصد السيدة المصرية التى أصبحت زوجة لزعيم أفريقى شهير؟

قال: نعم.

قلت: لكن ابنها آثر أن يعمل صحفيا فى جريدة ناطقة بالإنجليزية فى بلد والدته على أن يطالب بالرئاسة فى وطن والده.. وكان أولى به أن يسعى فى هذا الميدان لكن والدته عادت به إلى وطنها.

قال: وما يدريك أنه لن يفكر فى ذلك فى المستقبل.

قلت: وهل تعتقد أن حال والدته عند ذاك يكون أفضل حالا من حال المصرية التى تزوجت الوصى على عرش العراق؟ أو المصريات اللاتى تزوجن أبناء الأسرة المالكة السعودية؟

قال: لكن علاقتنا بهذه الدول ربما شهدت بعض التحسن بالمواكبة لهذه الزيجات.

قلت لأستاذى: ربما كان العكس هو الصحيح.

قال: إنك منحاز إلى أبعد الحدود فى هذه القضية، ولم أعرفك منحازاً بهذه الطريقة.

قلت: إنما أدافع الآن عن فكرة.

قال: لكنك تبدو منحازاً.

قلت: فماذا أفعل؟

قال: ما فعلته هو الصواب، لكن أرجو ألا تأخذ من حالة خاصة ما تعمم به الحكم على قضية بأكملها، وعلى سبيل المثال كيف يجوز لك أن تقول إن زيجات الحكام بأجنبيات تجلب الضرر على مصر؟

قلت: ماذا أفعل وأنا أجد أن هذه هى القاعدة منذ عهد قدماء المصريين، وانظر إلى ما صوره محمد عوض محمد حين كتب قصة «سنوحى» وألقى بعبء الخيانة على الزوجة الأجنبية أو على المعشوقة الأجنبية وجعل حبها

مرادفا للخروج عن الولاء للوطن فى أحلك الأوقات.. ولماذا ننظر إلى محمد عوض محمد وننسى نجيب محفوظ الذى تناول هذا الموضوع تناولا مباشرا فى كتابه «أمام العرش»؟

قال أستاذى: وهل كان الموضوع مثارا بهذه الحساسية منذ أيام قدماء المصريين؟

قلت: نعم.. وكان التعويل عليه بأكثر مما تظن، وكم نشبت صراعات وعداوات بسببه.

قال: لا أدرى.. ولعلى ظلمتك منذ قليل حين اتهمتك بالانحياز.

قلت: إن كان انحيازاً فهو إلى الحقيقة.

قال: لكنك منحاز.

قلت: لا أنكر ولا أبرر، لكنى لا أوافق أن هذا هو السبب فى حكمى.

قال: أعرف أنك مصيب وصادق، لكن هذا لا ينفى أنك منحاز.

قلت: شهادة أعتز بها.

قال: أعرف شجاعتك.

قلت: وأعرف قدرتك على القنص الهادئ بالمصيدة الثابتة!

ضحك أستاذى وقال: فما بالك بالوضع الحالى فى أوروبا، حيث العروش تنتمى إلى أصول مختلفة عن أصول شعوبها..

ألا ترى العرش البريطانى متصلا فى أصوله بألمانيا؟

ألا ترى زوجة ملك إسبانيا وعلاقتها باليونان؟

قلت: هذا عرش فحسب، أى أنه صار أمرا استاتيكيا لا قيمة له إلا فى

تاريخه، لكنك لا تستطيع أن تفرض رئيسا للوزراء فى بريطانيا وهو نصف ألمانى.. ولا فى إسبانيا وهو نصف يونانى.

قال أستاذى: وهل تنسى أن نابليون كان إيطالى الأصول، وأن هتلر كان نمساوى الأصول؟

قلت: وهل نسى أحد من الخصوم أو من الأصدقاء هذا أو ذاك؟ وهل كف الخصوم عن استغلال هذه الجزئيات فى الهجوم على تاريخ هذه الزعامات؟

قال: فلم تستكثر هذا على مصر؟

قلت: لم أفعل.. ولكن التاريخ هو الذى فعل هذا بمصر مرارا وتكرارا، فعله التاريخ فى صورة كليوباترا، التى حلمت بزعامة العالم لنفسها (أو فلنقل: حلمت لمصر بهذه الزعامة، وذلك على طريقة موظفينا الذين يرشحون أنفسهم لمناصب دولية ويتمحكون فى مصر فيقولون إن مصر مرشحة وإن مصر فازت.. إلخ) فأضاعت مصر وأضاعت حليفيها قيصر وأنطونيو واحدا بعد آخر.

قال: لكنى يا محمد أعرف أنها لم تضيع قيصرا!!

قلت: قد يكون صحيحاً أنها لم تضيعه فى وقته لكنها لما أضاعت أنطونيو أضاعته، وأضاعت معه قيصر بأثر رجعى لأن التاريخ لا يرحم.

قال: ومَنْ بعد كليوباترا؟

قلت: قطر الندى.

قال: ومَنْ أضاعت؟

قلت: ربما تكون قد أضاعت الخلافة كلها.

قال: يبدو أنك ستستمر فى كسب الجولة، لكن خبرنى: أفلا جدوى من قيام الصلات الثقافية فى صورة زواج بين أبناء أمتين؟

قلت: لكن هذه الصلات لا تعود على المثقف بالفائدة التى يتخيلها الجمهور من مثل هذه المصاهرات.. ألا ترى ابنتى الكاتب الكبير يوسف جوهر وقد تزوجتا من اثنين من أبرز سفراء بريطانيا وألمانيا فى العالم كله.. ومع هذا لم يشفع هذا النسب ليوسف جوهر فى الاقتراب من نوبل مع أنه ليس بعيدا عن مستواها.

قال: أنا أعرف عمق محبتك لهذا الرجل، ولكن مَنْ يدريك ألا يحصل عليها فى سنة قادمة؟.

قلت لأستاذى: وهل سيتعدل قانون الجائزة الذى لا يعطيها إلا للأحياء؟

قال: ربما.

قلت: أشك.

٢٠

لابد من نظام

دار الخيال

فوجئت بأستاذى فى عيادته الخاصة فى يوم من الأيام محتقن الوجه، فتمهلت ثم سألته عما كان قد أغضبه.

قال: هذا الصالون الجديد!!، جعلنى أتصدق بكراسى العيادة القديمة على مَنْ يستحقها لكنى فوجئت بأحد مساعدىّ وهو يكاد يلومنى على أنى تخطيته فى الإعطاء أو فى السؤال عمن يستحق، وكأنه وصى على.

قلت: وماذا بعد؟

قال: هل لو أنى نفذت ما يشير به أكان يغنى عنى من الله شيئا يوم القيامة؟

قلت: بالطبع لا.

قال: فبأى حق يفرض علىّ رأيه أو يريد أن أسير حسب توجيهاته أو اختياره؟!

قلت: ألست أنت الذى علمتنى أن أحدا لا يزعم لنفسه سلطة على الآخر إلا إذا كان الآخر قد أعطاه هذه السّلطة؟

قال: نعم، ولكن أهذا حق مطلق؟

قلت: إنك أنت الذى علمتنا ذلك!!

قال: لا أذكر، لكنى أصدّقك.

قلت: وأنا أذكّرك.

قال: هات ما عندك.

قلت: جئتك فى مكتبك ذات مرة فإذا بك قد أخرجت كل مَنْ تعودوا الجلوس فيه كل يوم، فأظهرتُ الرضا بقدرتك على التخلص من الطفيليين، فأخبرتنى يومها أن المشكلة ليست فى زيارتهم، ولا فى مكثهم فى المكتب ساعات طويلة، لكن المشكلة أن كل حوار مخترع عن دور قاموا به فى أى قرار لى سوف يلقى تصديق الناس، ولم لا وهم يرونهم كل يوم مرابطين فى المكتب؟

قال: تذكرت.. لكن الفارق كبير بين الموقفين.

قلت: قد يبدو كبيرا لكن النفس البشرية هى النفس البشرية.

قال: كأن الناس اليوم أصبحوا يدفعوننا لأن نحسب حساب كل خطوة.

قلت: نعم إذا كانت الخطوة كبيرة كخطواتك.

ابتسم أستاذى بعد تجهم وقال: لكن هذا شأن بين الإنسان وربه.

قلت: إن الذين يجدون لأنفسهم المبرر لا يهمهم الطرف الثانى عبداً كان أم رباً.

قال: ولا الطرف الأول أيضا.

قلت: فلم كان غضبك؟

قال: لأن مساعدى غضب.

قلت: لهذا كان الشرع الإلهى منتبها إلى ضرورة إعطاء مَنْ حضر القسمة.

قال: إنما هذا من العرف الذى تناقله الناس وجرت به أمثلتهم من قبيل القول بمن حضر القسمة فليقتسم.

قلت: كنت أظنه من العرف... لكننى وجدته من الشرع.

قال: فى شرع مَنْ؟ فى شرعك؟ هل وصل بك الأمر إلى أن تشرع فى شرع الله أيضا؟!

قلت: أستغفر الله.

قال: فزد فى استغفارك، فقد تعديت الحدود وأردت أن تجعل من العرف شرعا.

قلت: ليس هذا بموضوعنا وإن كان الشرع نفسه قد اعترف بالعرف.

قال: أعرف هذا لكنه لم يجعله شرعا.

قلت: بل أقره.

قال: دعنا من هذا مادمت تراه خارج نطاق موضوعنا، وهات دليلك على ما تقول من إعطاء الذين حضروا القسمة بعض التركة.

قلت: الآية صريحة فى سورة النساء على هذا المعنى.

قال: لكنها لم تخصص لهم فريضة ولا نصيبا.

قلت: هذا أولى.

قال: لِمَ؟

قلت: تركها الشارع جل وعلا للظروف.

قال: حتى لو كان هذا الذى حضر غنيا؟!

قلت: نعم، والدليل قوله تعالى: «ومَنْ كان غنيا فليستعفف».

قال: أفهم من الموضع الذى ورد فيه هذا النص القرآنى وهو الحديث عن أوصياء اليتامى أن المقصود أن يستَعِفّ عن الحرام.

قلت: عن الحرام وعن الحلال، والعبرة بعموم المعنى لا بخصوص اللفظ.

قال: لولا أنى أعرف أن هذه قاعدة أصولية ومنطقية لظننتك عبقرياً تؤلف من الموقف حكمة.

قلت: ألست كذلك؟

قال: أجبنى عن سؤالى أولا وأنا أعترف لك بالعبقرية.

قلت: أى سؤال؟

قال: أسألك عن الحكمة؟

قلت: سأخرج بك عن النص وعن الحالات التى أشار إليها الشارع.

قال: كيما تتوهنى وأنت فى هذا أمهر مَنْ عرفت.

قلت: حاشا لله.

قال: إذاً فاحفظ لى حقى فى العودة إلى نقطة البدء إذا أحسست أنك خرجت عن الموضوع.

قلت: ذلك بالطبع حق لأستاذى.

قال: ولكننى من أجل العلم تنازلت وأتنازل عن حقوق الأستاذية فتفضل.

قلت: لعلك تلاحظ ما يعترى أنشطة الجمعيات الأهلية الآن من عبث كثير.

قال: قل من فساد.

قلت: فلنأخذ بالأحوط.

قال: وما علاقة هذا بما نحن فيه؟

قلت: أعطنى المهلة.

قال: معك مهلتان.

قلت: فى المهلة الأولى ألخص لك نظام الوقف الأهلى الذى كان يسمح بإعطاء أجر معلوم أو نسبى للناظر القائم على الوقف.

قال: أعلم هذا، وقد سمعت فى شبابى عن اتهامات المعارضة للنحاس بأنه كان يفيد من تنظره على وقف فى سمنود.

قلت: هو ذاك!!

قال: وما هو؟ .

قلت: هذا هو المعنى الذى أريد أن أشير إليه فى المهلة الثانية.

قال: كأنما عدنا من المهلتين إلى مهلة واحدة كما طلبت.. وما هو هذا المعنى؟

قلت: النص القرآنى على أجر للعاملين على الصدقات.

قال: فى هذا الشأن نص صريح ليس فيه لبس، بل إن الحق جل علاه جعله من مصارف الصدقات والزكاة.

قلت: إنى أرى أنه لابد من الفصل بين الطواعية وبين الأجر على الإدارة فى الأمور الأربعة التى هى أبرز وسائل التكافل الاجتماعى وهى: الزكاة التى هى فرض، والصدقة التى هى نافلة، والوقف الذى هو نظام اجتماعى قديم، والجمعيات الأهلية التى هى الأخرى نظام اجتماعى مستحدث.

قال: وما جدوى هذا الفصل؟

قلت: جدواه أن يستمر النظام وألا يكون رهنا بوجود الخيرين القادرين على إدارة العطاء بلا مقابل.

قال: لكن جوهر العملية كلها يكمن فى العطاء بلا مقابل.

قلت: لكن تنظيم وإدارة العطاء لا يتحتم أن يكون بلا مقابل.

قال: ولِمَ لا؟

قلت: إن الله فرض هذا فى المال وحده.

قال: وستجد بلاشك أنه قد فرضه فى العافية وفى الذكاء رغم أنى لا أجد الدليل على هذا الفرض فى محفوظاتى.

قلت: أنا مسلم بأن هذا لابد أن يكون موجوداً حتى لو لم أجد الدليل عليه أنا الآخر فى محفوظاتى.

قال: أتؤمن بهذا؟

قلت: نعم أؤمن بزكاة الصحة، وبزكاة العافية، وبزكاة المعرفة، بل وأحاول أن أؤدى كل زكاة من هذه الزكوات قدر ما استطعت.

قال: اتفقنا.

قلت: لكن «الشارع» يعرف أن طبيعة الأمور لا تستلزم اقتران هذا بذاك.

قال: لكن الطبيعة توجد هذا، وتوجده على الدوام.

قلت: إنى أختلف مع سيادتكم وأرى أن الطبيعة لا تضمن اقترانهما دائما.

قال: ألهذا أحل الله الأجر على إدارة أو تنظيم العطاء.

قلت: بل شرّعه.

قال: وما الفارق؟

قلت: الفارق كما الفارق فى سؤال إجبارى نترك الإجابة عليه لأننا أيقنا من النجاح، وسؤال اختيارى نترك الإجابة عليه لأننا اخترنا غيره.

قال: تشبيه جيد لكنه لا يقرب الصورة.

قلت: الفارق أنه سبحانه وتعالى جعل الأصل أن إدارة العطاء تتطلب شخصا غير المعطى، وجعل الفرع أن المعطى قد يكون قادراً على إدارة عطائه.

قال: هذا أبلغ فى التعبير عن المعنى الفقهى لكنه لا يزال دون تشبيهاتك المعبرة.. لكن قل لى وأنت المغرم بالاقتصاد ما جدوى هذا على الفقراء؟

قلت: الأمر بسيط، أفرأيت لو أن ناظراً للزراعة حقق من وقف خيرى أضعاف ما يحققه ناظر آخر لنفس الوقف.. أليس هذا فى مصلحة المستفيدين من الوقف؟

قال: بلى.. بلى.. ولكن هل كان من حق أولئك أن يختاروا؟

قلت: لقد كان هذا جوهر موضوع نظارة النحاس لوقف سمنود.

قال: فزدنى من حديثك لأنى لا أتذكر فى هذه الجزئية إلا تشنيع مكرم عبيد على النحاس فحسب، ولا أذكر أصل الموضوع.

قلت: كان ناظر هذا الوقف هو على بك المنزلاوى.

قال: ومَنْ هذا؟

قلت: لقد كان هذا هو المرشح الأصلى للنيابة عن سمنود، حتى لقد كان متوقعاً فوزه فى برلمان ١٩٢٤ فإذا بسعد باشا زغلول يرشح أمامه النحاس، فيفوز النحاس ويتعجب مفكر كبير من وزن الدكتور محمد حسين هيكل من أن يكتسح النحاس دائرة المنزلاوى بهذه القوة حتى أنه سمى بقاهر المنزلاوى، كما سمى صنوه الغرابلى بقاهر صدقى.

قال: وماذا فعل المنزلاوى بعد هذا؟

قلت: كان من أنصار صدقى فى الثلاثينيات وما شابه ذلك من أوتوقراطيات القصر!

قال: وما قصته فى الوقف؟

قلت: إن المستفيدين ضجوا من إهمال المنزلاوى فى نظارته فطالبوا بأن يتنظر النحاس على الوقف!!

قال: وأجيبوا إلى طلبهم؟

قلت: أجيبوا.

قال: وكانت النتيجة بالطبع أن انصلح حال الوقف، فالنحاس رجل شريف وجاد ودوغرى.

قلت: هو ذاك.

قال: فما وجه تشنيع مكرم؟

قلت: كان يرفع عقيرته بأن النظارة لا ينبغى أن تكون فى مقابل أجر عليها، وهو قول ربما بدا صوابا لكنه ليس كل الصواب.

قال: يبدو لى أنى قد فهمت الآن السبب فى فهمك كله وفى تأصيلك للمسألة من التركة إلى الزكاة إلى الصدقة إلى الوقف إلى الجمعيات الأهلية.

قلت: ليس السبب هذا فحسب.

قال: فما السبب؟

قلت: إنك تعرف مسئوليتى السابقة عن كثير من الأنشطة الطلابية والشبابية.

قال: لكنك عفيف وقادر.

قلت: ليست المشكلة فىّ.

قال: لابد أنك تختار مَنْ هم على شاكلتك.

قلت: ولا فى هؤلاء.

قال: ففيم المشكلة؟

قلت: فى غير هؤلاء.

قال: وكيف تقنن مثل هذا؟

قلت: من حسن حظ مصر أن قانونها قوى ومتشعب، وقد تناول كل شىء بتفصيل ودقة.

قال: ففيم العبث إذاً؟

قلت: لقد علمتنا أن القهر هو سبب كل شىء.

قال: أعرف.. وأوقن.. لكنى لا أظن أن الأمر يصل إلى مثل هذا؟

قلت: بل يصل إلى ما هو أدق منه.

٢١

مقال التأبين

يعز علىّ أن أكتب اليوم ناعياً أستاذى الحبيب الأعز .. ووالدى الجليل الأكرم الذى تلقيت عنه ومنه على مدى عقدين من الزمان كل ما حاولت أن أتلقاه، وكل ما استطعت أن أتعلمه وأن أكتسبه من طابع نبيل، وخلق حسن، وعلم غزير، وإخلاص عميق، وتفان لا محدود، وحب للناس، وغفران للإساءة، وتسام عن كل حقد، وترفع عن كل صغيرة، وتمسك بكل قيم الحق والحب والخير والجمال.

تكاد نفسى تتفطر حزنا على فراق هذا الأستاذ الجليل، لولا أن وجوده فى هذه الحياة كان يبتعد عنا يوما بعد يوم فى مرضه الذى ابتلاه به الله فى نهاية حياته، وكنا نراه وهو يبتعد عن الحياة ويقترب من الحياة الأخرى، ونحن على عجز عن أن نفعل له شيئاً، وهو الذى علمنا جميعاً كيف نصارع المرض ونسعى من أجل الشفاء.

لكن يبدو أن هذه كما ذكرت من قبل فى رثاء صديق عزيز على كلينا هى سنة ذى الجلال والإكرام فى خلقه من ذوى الحضور الذين يكون من الصعب على من عرفوهم أن يفتقدوهم بين لحظة وأخرى، فتأبى رحمته سبحانه وتعالى إلا أن يسترد وديعته على نحو ينبئ بقرب اللحظة التى لا يعلمها إلا

هو، ومع هذا كله تأبى عقولنا أن تتقبل ما أدركته الحواس من افتقاد من كان ملء السمع والبصر.

كان أستاذى ـ عليه رحمة الله ـ جامعياً من الطراز الأول وجراحاً من الطراز الأول ومفكراً من الطراز الأول، ومع أنه وجد فى زمن المتأخرين، فإن فضله وعلمه وإخلاصه وأداءه المهنى كان يرتفع إلى مصاف أطباء القرون الوسطى من الحكماء العالمين العاملين، ولم تكن قيمته فى نظر زملائه وأساتذته وتلاميذه لتقل أبداً عن أعلام الجراحة العظماء من أمثال على باشا إبراهيم، وعبدالوهاب مورو، ولا عن أعلام الجامعيين الكبار: أحمد لطفى السيد، وطه حسين، ومحمد كامل حسين، وسليمان حزين. وقد هيأت له الأقدار أن يكون أول من حصل على تقدير الامتياز فى الجراحة العامة فى مدرسة قصر العينى سنة ثمان وخمسين (١٩٥٨)، وأن يعمل بعد هذا فى ثلاث جامعات هى: القاهرة وأسيوط والزقازيق حتى رأس الأخيرة فى سن مبكرة بعد أن تولى عمادة كلية الطب بها فى سن مبكرة أيضاً، وكان ثانى رئيس للجامعة الكبرى، كما كان ثانى عميد للكلية التى أصبحت بفضل جهوده وجهود زملائه وتلاميذه كلية كبرى أيضا. وكان أقدم الأساتذة العاملين فى الكلية حين تولى عمادتها، كما كان أقدم أساتذة الجامعة العاملين من ذوى الخدمة المتصلة حين تولى رئاستها.

■

بذل أستاذى الدكتور محمد عبداللطيف فى صمت وإيثار وتجرد كل نفسه ولا أقول كل جهده من أجل كليته وجامعته، فكان إلى آخر أعوامه المحاضر الذى يتولى تدريس مقرر الجراحة كله مرتين على الأقل فى كل عام، كما كان صاحب الدائرة فى دروس الجراحة الإكلينيكية، وظل بمثابة الممتحن الأول الذى يتولى تصحيح الورقة الأولى من مادة الجراحة كلها لكل طلابه، وهكذا ظل باستمرار بمثابة الميزان الحاكم لكل تقييم وتقدير، وقد نهج نفس النهج فى امتحانات الدكتوراه والماجستير والعليا، ولم يكن فى مصر كلها من يفوقه فى المشاركة الدائبة فى كل هذه الامتحانات، بل وفى

تقييم أبحاث أعضاء هيئة التدريس فى اللجان العلمية الدائمة لترقية أعضاء هيئات التدريس فى الجامعات المصرية.

ولم يكن فى جيله مَنْ مارس الجراحة على نحو ما مارسها هذا الأستاذ العظيم، الذى انقطع لها أربعين عاماً متصلة، مارس الجراحة فيها سبعة أيام فى الأسبوع، سواء فى حجرة العمليات، وفيما قبلها وفيما بعدها، لم يمنعه واجب رسمى أو وظيفى أو اجتماعى عن ممارستها، وقد شهدته فى كثير من الأيام يسافر فى الصباح المبكر كى يحضر اجتماعا فى القاهرة ثم يعود إلى جامعته لينهى توقيع أوراق أصحاب الحاجات ثم إلى عيادته فى الثانية ظهراً، ثم يجرى عمليات جراحية، ولا يمنعه هذا من أن يعود مرة ثانية فى بداية المساء إلى عيادته وأن يعود مرة أخرى إلى القاهرة فى المساء لحضور مؤتمر أو اجتماع رسمى لابد له من حضوره بحكم منصبه، وفى مرات عديدة حضر إلى القاهرة وعاد منها إلى الزقازيق ثلاث مرات فى أربع وعشرين ساعة فقط.

■

عمل أستاذى الدكتور محمد عبد اللطيف رئيساً للجامعة ثمانى سنوات متصلة لم أشهده أغلق باب مكتبه غير مرة واحدة فقط كان لابد منها ليتولى الكشف على مريض أصابه الجزع والهلع من أن يكون مريضاً بالسرطان، ولم تكن حالة المريض النفسية تمكنه من أن يصبر على طلب الاطمئنان حتى الظهيرة. ولم يحدث خلال هذه السنوات الثمانى أن تأخر ولا لساعات قليلة فى اعتماد مذكرة، أو طلب سفر، أو إجازة، أو طلب علاج، أو اعتماد صلاحية رسالة للمناقشة، أو اعتماد نتيجة فرقة دراسية، أو شهادة عليا، أو اعتماد توقيع أى ورق من أوراق الجامعة، كانت كل أمور الجامعة تتم إجراءاتها كلها فى نفس اليوم الذى يبدأ فيه أول موظف صغير تحرير المذكرة أو يبدأ كتابة الاستمارة، لأن كل الجامعة كانت تعرف أن رئيسها لا يخرج من مكتبه كل صباح وكل مساء إلا وقد أنهى اعتماد وتوقيع

كل الأوراق التى تتطلب اعتماده وتوقيعه، وقد كان من طابع هذه الروح الوثابة أن وسعت نطاق مَنْ هم مسموح لهم بعرض البريد على رئيس الجامعة، وعلى حين كانت جامعات أخرى لا تسمح بعرض البريد إلا بعد مروره على أحد نواب رئيس الجامعة أو الأمين، فإن سياسة الدكتور محمد عبداللطيف وسعت النطاق إلى حد السماح لرؤساء الأقسام العلمية ولرؤساء الأقسام الإدارية جميعا، وليس مديرى الإدارات فحسب، بعرض طلباتهم ومذكراتهم على رئيس الجامعة مباشرة، وكان ذكاء الراحل العظيم يمكنه من التعرف بعينه المجردة على التوقيعات وصحة نسبها إلى أصحابها، وفى الحالات القليلة التى شك فيها فى التوقيعات المذيلة كان شكه فى محله، وحول بنفسه المخالفات إلى النيابة، وربما أذيع سرا حين أقول إنه هو نفسه وليس موظف شئون الطلاب كان من اكتشف الواقعة الشهيرة التى حدث فيها التلاعب فى بعض شهادات الثانوية الإنجليزية، كما أنه هو نفسه الذى اكتشف التلاعب و التزوير فى الشهادات التى كان يحصل عليها البعض من بعض الدول الشرقية بدراسة السنوات الأولى فى كليات الطب بها.

■

لم يتخلف أستاذى يوما واحدا عن أن يقوم بأداء الواجب الاجتماعى تجاه كل فرد من أفراد أسرة الجامعة، وكان يقوم بالواجب بنفسه، ولم يحدث فى تاريخ الجامعات ولا المؤسسات المصرية أن ودع رئيس هيئة بمثل ما ودع به الدكتور محمد عبداللطيف عام واحد وتسعين عند نهاية رئاسته للجامعة، وقد استمرت الاحتفاليات على مدى أكثر من أربعين يوما لم تكف كافة الكليات والأقسام عن أن تؤدى له حق الشكر على ما قدم فى فترة رئاسته الجامعة، ومع أن التقاليد المصرية كانت قد تعودت على الترحيب بالقادم الجديد، ثم شكر الراحل بطريقة مهذبة ومقتضبة، فإن إحساس الجامعيين دفعهم دفعا إلى أن يقتصروا فى كل ما نشروا من إعلانات

اجتماعية حرصوا على أن يدفعوا أجورها من أموالهم الخاصة على أن يشكروا الراحل، ولم يشذ عن هذا النمط من السلوك سوى اثنين فقط عادا بعد وقت قصير جداً فعبرا عن مشاعرهما الحقيقية تجاه أستاذنا الكبير على نحو ما عبر الجميع.

■

أسهم الدكتور محمد عبد اللطيف بجهد وافر فى التأليف الطبى، وقد طبع كتابه فى الجراحة العامة مرات عديدة، ثم كان رائد المحاولة الضخمة التى نجح فيها حين وضع لأول مرة كتابا وأطلسا مصورا باللغة العربية فى دروس الجراحة الإكلينيكية، وقد عرض فيه مئات الصور للحالات الجراحية المصرية التى سجلها بنفسه بالتصوير الضوئى، وكان كتابه هذا فتحا كبيرا فى عالم الجراحة فى وطن تعود منذ فترة أن يكون عالة على المؤلفات الأجنبية فى فروع الطب المختلفة، ولم يكتف الأستاذ العظيم بما نشر من حالات فى هذا الكتاب فى أواسط الثمانينيات، لكنه واصل مراجعته وتعديله على مدى سنوات متصلة ليتلافى كل ما كان يتصوره من نقص فيما ألف وصنف.

وقاده هذا إلى أن يتولى وضع معجم متطور للمصطلحات الطبية باللغة العربية، وقد نجح فى هذا العمل أيما نجاح بعدما استطاع أن يطور منهجا للتأليف المعجمى لا يقف عند ذكر المصطلحات وإنما يقدم تعريفا وافيا بالمصطلح على نحو كفيل بالإحاطة والتعلم، وقد تولت جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية طبع هذا المعجم، كما تولى مركز التعليم الطبى فى الكويت التابع لجامعة الدول العربية طبع أطلس الجراحة.

وقد كان لى شرف مشاركته فى كل هذه الجهود كما كان لى شرف مشاركته فى ترجمة ومراجعة معجم طبى كبير يضم خمسين ألف مصطلح باللغات الثلاث، وقد أضاف جهده فى ترجمة هذا المعجم ثراء جديدا للغة العربية التى أصبحت اللغة الرابعة فى هذا المعجم الدولى المتميز.

ولم يكف أستاذنا فى خضم هذا كله عن متابعة البحث العلمى وتعديل الخطط الجراحية بما يتناسب مع ما زودته به خبرته الهائلة من فهم عميق لأسرار المرضى والجراحة، ومع أنه لم يكن ميالا إلى تدوين خبرته الثمينة إلا أن تلاميذه قاموا ببعض الواجب فى هذا المكان، ويصعب علينا جميعا أن نحصر البحوث التى شارك فيها أو أشرف عليها أو قيمها أو وجهها،وربما يفوق عدد هذه البحوث جميعا رقم الألف بلا مبالغة.

أما تلاميذه الذين تلقوا العلم مباشرة على يديه فيفوقون الآلاف المؤلفة فى مرحلتى البكالوريوس والدراسات العليا.

أما مرضاه الذين تطببوا على يديه فإن عددهم يفوق الحصر والوصف.

أما مريدوه فإنهم يضمون كل هؤلاء جميعا وكل من عمل تحت رئاسته، ويكفينى أن أذكر فى هذا المجال أن أحد أصدقائى كان مديراً لمستشفى خاص كبير فى القاهرة لم يلتق بأستاذى أبدا، لكنه كان يعبر عن رأيه ذات مرة فى أعلام الوطن فقال: إنه لم ير فى حياته على طولها وعرضها من يستحق الحب والتقديس المطلق مثل أستاذى الذى لم يشرف هو بمعرفته، ومع هذا فإنه ظل على مدى سنوات يتلقى منه توصيات متتالية على ذوى الحاجات. وكان سبب دهشته أنه ظل يعجب من أن يجد نفسه مع كل توصية من هذه التوصيات مسوقا إلى تحقيق رغبة حاملها دون أن يدرى السر الذى كان يجعله يندفع إلى تحقيقها، ومع أنه تعود أن يحسب حساب كل شىء وأن يقدر الأمور، إلا أن قوة قاهرة كانت تدفعه دفعاً إلى تلبية رغبات الناس الذين أوصى عليهم محمد عبداللطيف ببطاقاته الرقيقة التى كان يكتبها بنفسه باهتمام وجدية حتى إن كل حرف من حروف بطاقاته المكتوبة بخط اليد كان مكتوبا بالقدر نفسه من العناية رغم روتينية مثل هذا العمل الاجتماعى البحت. وكان صديقى يقول لنفسه: إذا كان هذا الرجل العظيم قد اهتم بالتوصية على هذا النحو فكيف بى لا ألبى رجاء لمن هو فى طبقته!

على أن الأهم من هذا كله، فى نظرى، أنه كان رائد الأفكار الليبرالية فى الإدارة الجامعية وقد أدى هذه الريادة بسلاسة دون أن يباهى بذلك، ودون أن يقدم فكره فى هذا المجال على أنه إنجاز، وعلى الرغم من أن العصر الذى عاشه كان يحاول المناداة بالليبرالية فإن العصر نفسه لم يكن يستطيع اللحاق بأفكاره الليبرالية فى التعليم الجامعى، ولا يخفى على أحد أننا لا نزال عاجزين عن أن نضع من اللوائح ما يحقق بعض ما كان هو بشجاعة وجرأة ينفذه على مسئوليته محققا الليبرالية ومعايير الجودة بطريقة سلسة دون تشدق كثير بالألفاظ أو المصطلحات أو الشعارات.

كان - على سبيل المثال - يسمح وهو عميد (فى النصف الثانى من السبعينيات) لأى طالب بأن يؤجل أى امتحان من الامتحانات الدراسية فى نهاية العام دون أن يعتبره غائبا بدون عذر، أو راسبا بالتالى، وكان فكره فى هذا الشأن أنه يكفى هذا الطالب أنه أضاع من عمره عاما (أو ستة أشهر) حتى يكون مؤهلا للامتحان التالى، وكان يرى فى هذا معيارا من معايير الجودة الكفيلة برفع مستوى خريجى الكلية التى كان يتولى عمادتها، وقد تحقق هذا بالفعل، فلم يدخل طالب فى عهد عمادته الامتحان لمجرد أن العام الدراسى قد انتهى ولابد له من دخول الامتحان، وإنما كان الطلاب يدخلون الامتحان لأنهم استعدوا له، وهكذا كانت نتائج طب الزقازيق تقترب على الدوام من المائة فى المائة، وكنت أتعجب لهذا حين كنت طالبا فى طب القاهرة، حتى عرفت الحقيقة، ولم تكن معارفنا القاصرة ولا عقليات غيرنا المقصرة تفهم فلسفة محمد عبداللطيف الليبرالية.. ومضت السنون فإذا بمعايير الجودة لا تدلنا على طريق أسلم ولا آمن من هذا الطريق الذى قاده إليه تفكيره العبقرى.

■

وكان هذا هو نفس منطقه الذى حكم توجهاته الليبرالية فى أثناء رئاسته للجامعة حين كان يسمح بالإجازات للعمل بالخارج دون تقييد للعاملين بعدد معين من السنوات، وهو التوجه الذى أخذت به الدولة نفسها فيما بعد ذلك،

وقد كان مع حرصه الشديد على استبقاء الأقسام العلمية للشخصيات الكفيلة بالقيام بالعملية التعليمية والبحثية على أفضل وجه، لا يتقيد فى الموافقة على التعاقدات الشخصية بنسب صماء (أو محددة سلفاً) لمن هم فى الداخل ولمن هم فى الخارج، مغلبا جوهر القدرة على أداء العمل على معايير النسب الكمية التى كان يرى أنها وضعت لمساعدة غيره ممن قد لا يستطيعون إدراك الأمور على حقيقتها بطريقة مباشرة، وقد مكنته معرفته لجميع أعضاء هيئة التدريس فى جامعته أن يزن الأمور بميزان الحقيقة والقدرة، ولست أذيع سرا إذا قلت إنه على الرغم من موافقاته المتوالية للأغلبية، كان يصمم فى أحوال قليلة على عدم التضحية بكفاءة معينة مهما كان الثمن الذى كان يتحمله بنفسه بطريقة أو أخرى، و قد كان له فى هذا الصدد فضل كبير فى استبقاء بعض من نعرفهم فى جامعة الزقازيق بفضل أسلوبه الآسر.

وكانت ليبراليته الحقيقية أيضا وراء قبوله تحويل طلاب جامعة بيروت، وجامعات الدول الأوروبية الشرقية إلى جامعة الزقازيق وكان من الشجاعة والإقناع بحيث حصل على موافقة المجلس الأعلى للجامعات المصرية على هذه الخطوات وذلك قبل أن يقر ذلك المجلس تطبيق المبدأ بصفة عامة على جميع الجامعات فى العام التالى لقرار جامعة الزقازيق، وقد نهج المنهج ذاته مع أبناء السودان فى أزماتهم، ولم يتجاوز فى هذا كله قانونا ولا قاعدة، لكنه فى الوقت ذاته لم يتعنت متحججا بنقص الإمكانات، ولا هو تعسف مستعملا حقه فى الرفض.

■

كان رحمه الله يؤمن بالحرية إيماناً مطلقاً لا حدود له، ولا نهاية له، ولم يكن يستسيغ أن يعمد أحد من مرءوسيه إلى اللجوء إلى أية سياسة أو قواعد تقيد الحرية من بعيد أو من قريب، وكان يجاهد فى سبيل تحقيق هذه الغاية بكل ما وسعته قدراته وسلطاته بل ونفوذه ومحبته عند العمداء والوكلاء ورؤساء الأقسام والأساتذة، وكان يرى أن تقييد الحرية وتقويمها لا

يكون إلا بإتاحة أقدار أكبر منها، وكان فى كل هذا السلوك ومظاهره سابقاً لعصره، ولم يكن له من دافع إلى هذا السلوك القويم غير فطرته القويمة، وكثيرا مابت الليالى أفكر فى جذور إيمانه بالحرية وهو الذى تلقى تعليمه الجامعى وتكوينه الوظيفى فى عصر شمولى، وإن كان قد تمتع فى صباه وشبابه الباكر بنسمات الديموقراطية والليبرالية، والواقع أنى لم أكن فى ذلك الوقت أستطيع أن أدرك حقيقة أن الفطرة القويمة وحدها قادرة على أن تكفل كل هذا القدر من الإيمان بالحرية وممارسة هذا الإيمان.

■

وكان يؤمن قبل هذا كله بالقدوة، وإذا قيل إن مجتمعا علميا تكون فى مصر المعاصرة بفضل القدوة، فإن المجتمع الذى كونه وبناه وصانه محمد عبداللطيف هو هذا المجتمع، لم يضع نظماً ولا قواعد، ولم يستعمل حقا قانونيا ولا إداريا، لكنه حقق كل ما حقق من نجاح بفضل القدوة وكان إيمانه بأثرها لا يعدله إيمان، ولم يكن عنده أى قدر من الاستعداد للإيمان ببدائل للقدوة فى الإتيان بمفعولها السحرى فى تحقيق النجاح والتوفيق لمدرسته العلمية.

وكان يدرك إدراكاً عميقا أهمية توازى خطوط التنمية مع بعضها، خاصة فى مجالات التعليم والتعليم العالى والصحة والبحث العلمى، وهى المجالات التى أتيح له أن يشارك فى التخطيط لها، وكان من أشد المؤمنين بحقيقة أن جامعة رفيعة المستوى لا تغنى عن محو الأمية، وكان واقعيا فى تقدير النجاح، ولم تكن التقارير ولا المظاهر بقادرة على أن تخدعه عن إدراك حقيقة تفضيل ما هو ممكن التحقيق على ما هو مستحيل، ولم يكن يكلف الأمور أكثر من طاقتها، وكان يأسى لتدهور الأخلاق والجودة والإتقان، لكنه كان يحاول أن يجد العوض عن هذا فى السرعة وقلة التكلفة، ومع هذا كله فقد كان الألم العميق يجتاحه كلما رأى خلقا ينهار، وكما رأى جدارا يتداعى، وكلما رأى إنسانا يخون ، وكلما رأى خطيئة ترتكب ، وكلما رأى زيفا يسود.

كان أستاذى لين العريكة، سهل القياد، رقيق الحاشية، لكنه مع هذا كله كان أسدا هصورا فيما يعتقده صوابا، وكان سدا منيعا أمام ما يراه كفيلا بفتح باب الوباء، وكان ذكيا فى التفريق بين الصغائر والكبائر، وبقدر ما كان يتغاضى عن الصغائر بقدر ما كان حريصا على الوقوف بكل شدة أمام الكبائر.

وإنى لأعترف بكل فخر واعتزاز أنى مدين له بمعظم ما يظنه الناس فىّ من تفكير متفتح، وقدرة على النظر إلى الأمور كلها بتجرد وحيادية، وقد كان من فضل الله علىّ أن هيأ لى أن يكون حوارى العقلى الساخن والمتصل فى سنوات التكوين مع مثل هذا العقل الكبير الذى يندر أن يتكرر فى مجتمعنا العربى.

رحمه الله رحمة واسعة وغفر له وعوضنا عنه.

كتب للمؤلف

فى تراجم العلماء والأدباء

● **الدكتور محمد كامل حسين عالما ومفكراً وأديباً**
الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٢.
تضم الطبعة الثانية أبواباً وفصولاً مختلفة لم تضمها الطبعة الأولى.
□ **الدكتور محمد كامل حسين عالما ومفكراً وأديباً**
الطبعة الأولى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٨،
● **سيرة حياة على مصطفى مشرفة**
الطبعة الثانية، مكتبة مدبولى، ٢٠٠١.
تضم الطبعة الثانية أبواباً وفصولاً مختلفة لم تضمها الطبعة الأولى.
□ **مشرفة بين الذرة والذروة**
الطبعه الأولى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٨٩٠.
● **سيرة حياة العالم الأديب الدكتور أحمد زكى**
الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٣.
تضم الطبعة الثانية أبواباً وفصولاً مختلفة لم تضمها الطبعة الأولى.
□ **أحمد زكى حياته وفكره وأدبه**
الطبعة الأولى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب، ١٩٨٤.
■ **الدكتور على باشا إبراهيم**
الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب، ١٩٨٥.
■ **الدكتور نجيب محفوظ**
الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب، ١٩٨٦.
■ **الدكتور سليمان عزمى باشا**
الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب، ١٩٨٦.
● **عاشق العلم أحمد مستجير**
المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٨.
■ **توفيق الحكيم من العدالة إلى التعادلية**
الهيئة المصرية العامة للكتاب، المكتبة الثقافية، ١٩٨٨.

● الظواهرى والإصلاح الأزهرى

مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٨ .

● أستاذ الجيل فى السعودية ، محمد طاهر الدباغ

سيرة حياته وفكرة التربوى وإنجازاته التربوية.

● الحكيم الجراح

سيرة حياة د. محمد عبد اللطيف، دار الخيال، ٢٠٠٩.

فى تراجم السياسيين

■ إسماعيل صدقى باشا (١٨٧٥ ـ ١٩٥٠)

الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين، ١٩٨٩.

● سيد مرعى، شريك وشاهد على عصور الليبرالية والثورة والانفتاح

مكتبة مدبولى، ١٩٩٩.

● عثمان محرم .. مهندس الحقبة الليبرالية المصرية

مكتبة مدبولى ، ٢٠٠٤ .

●على ماهر و نهاية عصر الليبرالية

دار الشروق، ٢٠٠٩.

فى تراجم العسكريين

● عبداللطيف البغدادى .. شهيد النزاهة الثورية

دار الخيال، ٢٠٠٦.

● صانع النصر .. المشير أحمد إسماعيل (١٩١٧ ـ ١٩٧٤)

دار جهاد، ثلاث طبعات : ٢٠٠٣ ، ٢٠٠٥.

□ مايسترو العبور .. المشير أحمد إسماعيل

دار الأطباء ، ١٩٨٤.

■ سماء العسكرية المصرية الشهيد عبدالمنعم رياض (١٩١٩ ـ ١٩٦٩)

دار الأطباء ، ١٩٨٤.

فى التراجم المجمعة

■ مصريون معاصرون

طبعتان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩، ٢٠٠٥.

● كيف أصبحوا عظماء .. دراسات ورثاءات

الطبعة الأولى : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧.

■ يرحمهم الله : كلمات فى التأبين

دار الأطباء، ١٩٨٤.

فى التاريخ العسكرى لمصر المعاصرة

□ الطريق إلى النكسة ، مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٦٧

عبدالحميد الدغيدى، وعبدالمحسن كامل مرتجى، وأنور القاضى، وصلاح الحديدى، ومحمد فوزى.

طبعتان ، دار الخيال، ٢٠٠٠ .

● النصر الوحيد : مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٧٣

محمد عبدالغنى الجمسى، وسعد الشاذلى، وعبدالمنعم خليل، ويوسف عفيفى، وعادل يسرى.

طبعتان ، دار الخيال، ٢٠٠٠ .

● **فى أعقاب النكسة : مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٦٧ ـ ١٩٧٢**

مدكور أبوالعز، ومحمد أحمد صادق، ومحمد صدقى محمود، ومحمد فوزى، وصلاح الحديدى.

دار الخيال، ٢٠٠١ .

فى الأمن القومى والسياسى

● **الأمن القومى لمصر ، مذكرات قادة المخابرات والمباحث**

صلاح نصر ، ومحمد حافظ اسماعيل ، وأمين هويدى ، وأحمد كامل ، وحسن طلعت ، وفؤاد علام.

طبعتان ، دار الخيال، ١٩٩٩.

● **قادة الشرطة فى السياسة المصرية (١٩٥٢ ـ ٢٠٠٠) دراسة تحليلية وموسوعة شخصيات**

طبعتان، مكتبة مدبولى، ٢٠٠١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨.

فى تاريخ عهد الثورة

● **أهل الثقة وأهل الخبرة..مذكرات وزراء الثورة**

كمال حسن على، وسيد مرعى، وعبدالجليل العمرى، وثروت عكاشة، وإسماعيل فهمى، وعثمان أحمد عثمان، وضياء داود، وأحمد خليفة، وعبدالوهاب البرلسى، وحسن أبوباشا.

الطبعة الثانية، ٢٠٠٨.

□ **مذكرات وزراء الثورة**

طبعة مختصرة ومبكرة من كتاب «أهل الثقة وأهل الخبرة».

دار الشروق، ١٩٩٤.

● **الثورة والحرية ، مذكرات المرأة المصرية**

بنت الشاطئ، وجيهان السادات، ولطيفة الزيات، وزينب الغزالى، وإنجى أفلاطون، واعتدال ممتاز، وإقبال بركة، ونوال السعداوى، وسلوى العنانى، وثريا رشدى.

دار الخيال، ٢٠٠٤.

□ **مذكرات المرأة المصرية**

طبعة مختصرة ومبكرة من كتاب «الثورة والحرية.

دار الشروق، ١٩٩٥.

● **نحو حكم الفرد : مذكرات الضباط الأحرار**

محمد نجيب ، خالد محيى الدين ، عبد المنعم عبد الرؤوف ، جمال منصور ، عبد الفتاح أبو الفضل ، حسين حمودة.

دار الخيال، ٢٠٠٣.

□ **مذكرات الضباط الأحرار**

طبعة مختصرة ومبكرة من كتاب «نحو حكم الفرد» تضم أيضاً باباً عن مذكرات عبداللطيف البغدادى لم تتضمنه الطبعة الثانية.

دار الشروق، ١٩٩٦.

فى تاريخ عصر الملكية

● **على مشارف الثورة : مذكرات وزراء نهاية عهد الملكية ١٩٤٩ ـ ١٩٥٢**

أحمد مرتضى المراغى، وكريم ثابت، وإبراهيم فرج، وصليب سامى، وعبدالرحمن الرافعى.

دار الخيال، ٢٠٠١ .

● **فى كواليس الملكية : مذكرات رجال الحاشية**

حسن يوسف، ود. حسين حسنى، وصلاح الشاهد، والغريب الحسينى.

طبعتان، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٦ ، ٢٠٠٩.

● **فى ضوء القمر : مذكرات قادة العمل السرى والاغتيالات السياسية**

عبد العزيز على ، وعبد الفتاح عنايت ، وأحمد رمضان زيان

مكتبة الشروق الدولية ٢٠٠٧.

● **العمل السرى فى ثورة ١٩١٩**

إبراهيم عبد الهادى ، وسيد باشا ، وعريان يوسف سعد ، ومحمد مظهر سعيد
مكتبة الشروق الدولية ٢٠٠٩.

فى تاريخ الطوائف المهنية فى مصر المعاصرة

● **فى رحاب العدالة : مذكرات المحامين**

عبدالفتاح حسن، وفتحى رضوان، ود. محمود كامل، ود. يوسف نحاس
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٧ .

● **محاكمة ثورة يوليو : مذكرات رجال القانون والقضاء**

محمد عصام الدين حسونة، وممتاز نصار، ومحمد عبدالسلام، وجمال العطيفى، ومحمد عبدالسلام الزيات، وماهر برسوم، وحسن عبدالغفار.
دار الخيال، ١٩٩٩ .

● **من أجل السلام ، مذكرات رجال الدبلوماسية المصرية**

عصمت عبد المجيد، محمود رياض ، محمد ابراهيم كامل ، حسين ذو الفقار صبرى ، عبد الوهاب المشماوى ، جمال بركات.
دار الخيال، ١٩٩٩.

● **عسكرة الحياة المدنية: مذكرات الضباط فى غير الحرب**

سمير فاضل، وأحمد طعيمة، وحلمى السعيد، ومصطفى بهجت بدوى، ورياض سامى.
الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٤.

فى تاريخ التعليم الطبى

● **أقوى من السلطة : مذكرات أساتذة الطب**

زكى سويدان، ومصطفى الرفاعى، ومصطفى الديوانى، ودمرداش أحمد، وأرنست سليمان شلبى.
الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٤ .

■ **دليل الخبرات الطبية القومية وتاريخ التعليم الطبى الحديث**

الجمعية المصرية للأطباء الشبان، ١٩٨٧.

فى تاريخ الفكر التربوى والحياة العقلية

■ **آراء حرة فى التربية والتعليم**

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١ ، مكتبة الأسرة ، ٢٠٠٥ .

● **مستقبل الجامعة المصرية**

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩ .

● **تكوين العقل العربى .. مذكرات المفكرين والتربويين**

شوقى ضيف، وعبدالرحمن بدوى، ومحمد عبدالله عنان، ومحمد على العريان، وأحمد عبدالسلام الكردانى، ونادية رضوان
دار الخيال، ٢٠٠٢ .

● **الثورة والإحباط : مذكرات أساتذة الادب والأدباء**

أحمد هيكل، وعلى الحديدى، والأساتذة صالح مرسى، وفتحى أبوالفضل، وجليلة رضا، وعايدة الشريف، وأمانى فريد.
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٤.

● **بناء الجامعات والأكاديميات: مذكرات رواد العلوم والفنون**

سليمان حزين، وسمحة الخولى، وعبدالحليم منتصر، وعبدالكريم درويش
الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٦.

● فى حدائق الجامعة : مذكرات خريجى جامعة القاهرة فى عقدها الأول (١٩٣٠-١٩٤٠):
عبدالعزيز كامل ، ابراهيم عبده ، شكرى عياد ، سعيد جودة السحار
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٧.

فى تاريخ الصحافة

● مجلة الثقافة (١٩٣٩ ـ ١٩٥٢) تعريف وفهرسة وتوثيق
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣.
● فى خدمة السلطة .. مذكرات الصحفيين
موسى صبرى، وأحمد بهاء الدين، وعبدالستار الطويلة، وفتحى غانم، وحلمى سلام، وجلال الحمامصى.
دار الخيال، ٢٠٠٢ .

فى تاريخ اليسار المصرى

● يساريون فى زمن اليمين : مذكرات قادة الفكر اليسارى المصرى
د. مراد غالب ، د. حامد عمار ، د. رشدى سعيد ، د. عبد العظيم أنيس
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦.
● تحت الأرض وفوق الأرض: غربة اليساريين المصريين
رفعت السعيد ، رءوف عباس ، أحمد عباس صالح ، محمد يوسف الجندى ، صليب إبراهيم
مكتبة الشروق الدولية.

فى الفكر التنموى

● القاهرة تبحث عن مستقبلها
دار المعارف، ٢٠٠٠.

● التنمية الممكنة : أفكار لمصر من أجل الازدهار
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١.
● مستقبلنا فى مصر : دراسات فى الإعلام والبيئة والتنمية
الطبعة الثانية، دار الشروق، ١٩٩٧ .
□ الصحة والطب والعلاج فى مصر
الطبعة الأولى، جامعة الزقازيق، ١٩٨٧ .
● الصحة والطب والعلاج فى مصر
الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٥ .

دراسات أدبية ولغوية

● فن كتابة التجربة الذاتية : مذكرات الهواة والمحترفين
دار الشروق، ١٩٩٧.
■ فى ظلال السياسة.. نجيب محفوظ .. الروائى بين المثالية والواقع
دار جهاد، ٢٠٠٣.
● على هوامش الأدب
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢.
■ ثلاثية التاريخ والأدب والسياسة
دار جهاد، ٢٠٠٣.
□ من بين سطور حياتنا الأدبية
دار الأطباء ، ١٩٨٤.

- **أدباء التنوير والتأريخ الإسلامى**

الطبعة الثانية، دار الشروق، ١٩٩٤.

- **كلمات القرآن التى لا نستعملها**

صدر فى طبعتين : دار الأطباء، ١٩٨٤، دار الشروق، ١٩٩٧.

وجدانيات

- **أوراق القلب (رسائل وجدانية)**

الطبعة الأولى، دار الشروق، ١٩٩٤.

- **أوهام الحب : دراسة فى عواطف الأنثى**

الطبعة الأولى، الكتاب الأول فى سلسلة كتاب الجمهورية ، أغسطس ١٩٩٩.

الطبعة الثانية، دار جهاد، ٢٠٠٧.

الطبعة الثالثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٩.

فى أدب الرحلات

- **رحلات شاب مسلم**

صدر فى ثلاث طبعات : دار الصحوة ١٩٨٧، دار الشروق ١٩٩٥، دار جهاد ٢٠٠٣.

- **شمس الأصيل فى أمريكا**

صدر فى طبعتين عن دار الشروق، ١٩٩٦، ودار جهاد، ٢٠٠٣.

فى الفكر السياسى

- **كيف أصبحوا وزراء .. دراسة فى صناعة القرار السياسى**

دار الخيال، ٢٠٠٢.

- **الفلسطينيون ينتصرون أخيراً .. دراسات فى التنبؤ السياسى**

دار جهاد، ٢٠٠٢ .

- **المسلمون والأمريكان فى عصر جديد**

دار جهاد، ٢٠٠٢ .

تحقيق

- **يوميات على مصطفى مشرفة .. يناير ١٩١٨ ـ يوليو ١٩١٨**

مكتبة الأسرة، ٢٠٠٣.

موسوعة تاريخ النظام السياسى المصرى المعاصر

- **النخبة المصرية الحاكمة (١٩٥٢ ـ ٢٠٠٠)**

مكتبة مدبولى، ٢٠٠١ .

- **البنيان الوزارى فى مصر (١٨٧٨ ـ ٢٠٠٠)**

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١، مكتبة الأسرة ، ٢٠٠٥ .

- **البنيان الوزارى فى مصر (١٩٥٢ـ ١٩٩٦)**

دار الشروق ، ١٩٩٦.

- **الوزراء ورؤساؤهم ونواب رؤسائهم ونوابهم ، تشكيلاتهم وترتيبهم ومسئولياتهم**

صدر فى طبعتين عن دار الشروق، ١٩٩٦ ، ١٩٩٧ .

□ **التشكيلات الوزارية فى عهد الثورة (١٩٥٢ ـ ١٩٨١)**

الهيئة العامة للاستعلامات، ١٩٨٦ .

● **المحافظون.. قوائم كاملة وترتيبية وفهارس تفصيلية وأبجدية وزمنية ودراسة لتسلسل وتطور اختيار المحافظين منذ بدء نظام الإدارة المحلية (١٩٦٠ ـ ٢٠٠٠)**

الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١.

□ **المحافظون**

الطبعة الأولى عن دار الشروق، ١٩٩٦.

أعمال موسوعية

● **القاموس الطبى نوبل فى ٣ أجزاء (بالاشتراك مع أ.د. محمد عبداللطيف)**

دار الكتاب المصرى، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، القاهرة، ١٩٩٨.

فى طب القلب باللغة العربية

● **أمراض القلب الخلقية الصمامية ٢٠٠١**

دار المعارف، ٢٠٠١.

● **أمراض القلب الخلقية : الثقوب والتحويلات ٢٠٠٢**

دار المعارف، ٢٠٠١ .

ببليوجرافيات

■ **الببليوجرافيا القومية للطب المصرى (٨ أجزاء)**

الأكاديمية الطبية العسكرية على مدى الفترة من ١٩٨٨ وحتى ١٩٩١.

كتب للأطفال

● **على مصطفى مشرفة**

السلسلة الثقافية لطلائع مصر ، العدد ٣٧، المجلس القومى للشباب، القاهرة ، ٢٠٠٧.

● **على باشا إبراهيم**

المجلس القومى للشباب، ومجلة الإذاعة والتليفزيون، القاهرة ، ٢٠٠٨.

الكتب المسبوقة بدوائر سوداء ● متاحة لدى الناشرين المذكورين وموزعيهم
الكتب المسبوقة بمربعات بيضاء □ نفدت ولن يعاد طبعها لوجود طبعات جديدة أوفى منها
الكتب المسبوقة بمربعات سوداء ■ نفدت ونرجو الله أن يوفقنا لإعادة طبعها عن قريب